المجلد 3 ، العـدد 3 ص 300 - 322 (2025)، Volume 3 , Issue 3

التجليات الصوفيزيائية في قصيدة الوادي المقدس لأبي مسلم البهلاني -مقاربة بينية-

سعيد بن سليم الصلتي

جامعة التقنية والعلوم التطبيقية (سلطنة عمان)

Sophistic Manifestations in the Poem 'The Sacred Valley' by Abu Muslim al-Bahlani - An Interdisciplinary Approach-

Said bin Saleem al-Salti

University of Technology and Applied Sciences (Oman)

تاريخ الاستلام: 10 / 08 /2026 تاريخ القبول: 20 / 09 / 2026 تاريخ النشر: 01 / 12 / 2025

الملخص:

يشير هذا الملخص البحثي إلى وجود تقاربات لافتة بين الخطاب الصوفي ونظريات الفيزياء الحديثة، ما يستدعي مقاربة بينية تهدف إلى بناء جسر معرفي بين الحقلين. ينطلق البحث من إشكالية أساسية تتمثل في الفجوة العميقة بين التصورين، وهي التي تدفع المنظور المادي إلى رفض الرؤية الصوفية ووصفها بالشطح والابتعاد عن الحقيقة، بينما تعيد الفيزياء المعاصرة تعريف مفاهيم كالوهم والعدم والوجود.

يسعى البحث إلى معالجة أسئلة وجودية كبرى (ما قبل الانفجار العظيم، طبيعة الكون، علاقة الوجود بالعدم، المصير النهائي للكون) من خلال تقاطع رؤى الصوفية مع معطيات الفيزياء التجريبية. وتعتمد منهجيته على القراءة البينية التي تبحث عن المشتركات بين العلمين، سواء بشكل مباشر أو من خلال التوفيق والاستنتاج.

يكمن الهدف الأساسي في إثبات أن الدين والعلم ينبعان من منبع واحد لا تعارض فيه، وأن غياب التفسير المنطقي لبعض المعطيات الدينية لا يبرر رفضها، إذ قد تكشف الفيزياء لاحقاً عن تفسيراتها. كما يهدف البحث إلى تقديم رؤية عقلانية تعين على فهم الخالق وتعميق الإيمان عبر التصور المنطقي.

تتخذ الدراسة من قصيدة "الوادي المقدس" لأبي مسلم البهلاني (ألفية في أكثر من 1500 بيت) مدونة لها، نظراً لغناها بالإشارات الصوفية التأملية في الكون من خلال أسماء الله الحسنى. ويؤكد البحث أن قراءته ليست نهائية، بل هي محاولة لتقريب المسافة بين هذين الحقلين المعرفيين لتحقيق التكامل المنشود.

كلمات مفتاحية: التصوف.، الفيزياء.، الدراسة البينية.، التكامل.، المقاربة.

Abstract:

This research highlights intriguing parallels between Sufi discourse and modern physics, prompting an interdisciplinary approach to bridge the two fields. It addresses the fundamental gap between materialistic perspectives, which often dismiss Sufi views as illusory, and contemporary physics, which redefines concepts like existence and nothingness.

The study explores major existential questions—such as the pre-Big Bang state, the universe's nature, and its fate—by integrating Sufi insights with empirical physics. Its methodology seeks common ground between the two disciplines through synthesis and inference.

The core objective is to demonstrate that religion and science originate from a single source with no inherent contradiction. It argues that the lack of logical explanation for certain religious concepts does not justify rejection, as physics may later provide interpretations. The research also aims to offer a rational perspective that deepens understanding of the Creator through logical conceptualization.

The analysis is based on Abu Muslim al-Bahlani's poem "The Sacred Valley" (over 1,500 verses), renowned for its Sufi contemplations on the universe through divine attributes. The study acknowledges its interpretations as provisional, merely attempting to bridge these fields of knowledge toward greater integration.

Keywords: Sufism; physics; interdisciplinary studies; integration; approach.

مقدمة:

مما يشد انتباه الباحث وجود مقاربة بين المضمون الصوفي ومعطيات الفيزياء الحديثة، وهو أمر يدعو إلى استحداث قراءة بينية تهدف إلى عقد صلة بين العلمين، بغية الوصول إلى تصور موحد، يمكن أن يجمع الاهتمامين، ويؤسس للمعرفة العرفانية الصوفية في ضوء السببية الفيزيائية القائمة على التجريب، ومن شأن ذلك أن يعضد القناعات بالماورائيات، حيث تلتقي بالمشاهدات، ويردم الهوة السحيقة بينهما.

والقراءة في المدونتين تكشف عن خيوط من الترابط على أصعدة مختلفة، يسعى البحث إلى إعادة ترتيبها، حيث تكمن مشكلة البحث في قصور التصور العلائقي بين هذين الفرعين من فروع المعرفة، قصورا يفضي إلى التناقض في بعض التصورات، الأمر الذي يجعل الماديين ينكرون على المنهج الصوفي نظرته، ويعدونه شطحا وابتعادا عن الحقيقة، وتمسكا بعالم من الوهم والخيال، بينما تعيد الفيزياء رسم معنى الوهم والخيال، ويطرح البحث مجموعة من الأسئلة ومنها: ماذا قبل الانفجار العظيم؟ وما العلاقة بين مكونات الكون المتعددة؟ وكيف يشكل العدم وجودا؟ وفي المقابل كيف يكون الوجود مجرد وهم؟ وإلى أين يسير الكون في النهاية؟ وتأتي إجابة هذه الأسئلة بناء على مقولات الصوفية والفيزياء، ونقاط التلاقي بين العلمين، ولا يزعم البحث أن قراءته نهائية، بل هي محاولة لردم الهوة، وتقريب المسافة.

ويعتمد البحث على القراءة البينية الوصفية، التي تقارن بين مقولات العلمين، حيث تركز على المشتركات التي تحقق نسبة من التلاقي، سواء كان لقاء مباشرا صريحا، أو لقاء يقوم على التوفيق والاستنتاج، فالصوفية تنتمي إلى العلوم الإنسانية وجزء منها يرتبط بالماورائيات، بينما الفيزياء علم تجريبي، لا يقر إلا ما أثبتته التجربة، فإذا أثبتت الفيزياء أمرا، وصادف موافقة مع مقولة الصوفية، فقد أسهم في غرس القناعة بها، وزاد من تقبل الناس لتفسيراتها، وهنا تتجلى قيمة القراءة البينية.

والهدف الأساس من البحث إيجاد الرابط بين العلمين بما يحقق التكامل بين الدين والعلم، وأنهما من واد واحد لا تعارض بينهما، وأن عدم وضوح الحكمة في كثير من معطيات الدين، وعدم وجود التفسير المنطقي حاضرا، لا يبيح لنا الرد والرفض، فهناك ما يخفى على عقول البشر، وربما يأتي زمن تكشف فيه العلوم التطبيقية كالفيزياء عن تفسير الكثير من المبهمات، كما يهدف البحث إلى تقديم تفسير يعين على معرفة الخالق وتوكيد عظمته، توكيدا يقوم على التصور المنطقي، وإدراك علاقة الخالق بالمخلوق، وهو أمر يفضي في النهاية إلى تعميق الإيمان، ويقرب العبد من ربه، ويعرِّف الإنسان بحجمه الحقيقي، وتلك غاية مهمة يمكن أن تعيد توجيه البوصلة، وتعيد رسم الأولويات.

أما عن مدونة الدراسة الصوفية، فهي قصيدة الوادي المقدس لأبي مسلم البهلاني، وهي ألفية تقع في أكثر من 1500 بيت، يبدؤها بمقدمة ثم يخصص أبياتا لكل اسم من أسماء الله الحسنى، ويختم بخاتمتين، وهذا الذكر لا يخلو من إشارات

المجلد 3 ، العدد 3 ص 300 - 322 (2025)، Volume 3 , Issue 3

صوفية تنم عن فهم الشاعر للكون وتأمله فيه، وهو فهم يشارك فيه غيره من الصوفية عموما، والأسماء الحسنى شاملة للقوة المتحكمة في الكون من جميع الجهات، ولا يمكن الإحاطة بها، وبتأثيراتها، وإنما حسب البحث أن يقف على الإشارات التي تجلت في القصيدة ومقاربتها مع معطيات الفيزياء الحديثة، وكون القصيدة ألفية يمهد للتنوع ويسهل التجول في ربوع معانيها الغزيرة، وهو أمر يقوم سببا لاختيارها دون سواها.

وينقسم البحث إلى سبعة مباحث، تترتب كالآتي: "ما قبل الكون"، وهو مبحث يناقش ما هو خارجٌ عن الزمان والمكان، قبل وقوع الانفجار العظيم، بناء على الإشارات الصوفية في قصيدة الوادي المقدس، مقاربةً مع مقولات الفيزياء، ثم مبحث "الانفجار العظيم"، وما لازمه من تشكل الكون من المادة الأولى، ومن نقطة التفرد، أو من الهيولى التي تقول بها الفلسفة وتأخذ بها الصوفية، ثم مبحث "تماسك النسيج الكوني"، الذي جاء بعد زمن من الانفجار العظيم، حيث تقاربت المكونات وتماسكت، ثم مبحث "الطاقة لا تفنى"، حيث يحفظ الكون الطاقة وإن تحولت من حال إلى حال، أو من مادة إلى طاقة، فهي لا تخرج عن الكون، ثم مبحث "مجرد وهم"، في إشارة إلى النظريات التي تنظر إلى الوجود المشهود كونه مجرد وهم ليس له حقيقة ثابتة، وإنما هو متشكل بناء على وهم الراصدين، ثم مبحث "العدم الموجود"، الذي يجعل العدم أو الفراغ شيئا موجودا له أثره وقوته، ودوره الوظيفي في الكون، ثم مبحث "الانسحاق العظيم" الذي يشير إلى النهاية المتوقعة للكون بالعودة كما بدأ أولا، وهذا الترتيب يعتمد الزمن تصاعدا إلى درجة كبيرة، أو يكاد أن يكون كذلك.

وقبل الدخول في المباحث لا بد من التعريف بمصطلح (الصوفيزيائية)، وهو مصطلح اجترحه هذا البحث بالنحت اللغوي، وهو مكون من كلمتين، (الصوفية، والفيزياء)، ولم يقف البحث على استعمال هذا المصطلح بالرغم من وجود بحوث تربط بين الدين والعلم، ومن أبرزها بحوث الدكتور مصطفى محمود، ومن ذلك برنامجه الشهير "العلم والإيمان" الذي قدمه في أكثر من 400 حلقة على مدار ثمانٍ وعشرين سنة، بالإضافة إلى الكثير من الكتب ومنها، (الله يتجلى في عصر العلم، الدين والعقل الحديث، الكون والقرآن، أفي الله شك؟، خلق الكون بين العلم والإيمان)، وهناك مصطلحات تلتقي في مدلولها مع الصوفيزيائية، مثل العلم الإلهي، والفلسفة الصوفية الطبيعية، والميتافيزيقيا الصوفية، وكونيات صوفية، وغيرها، وهي لا تعني تماما الصوفيزيائية التي يجترحها البحث هنا، بالرغم من أنها تناقش القضايا البينية بلا شك، غير أن البحث يتسم بخصوصية الإشارات الصوفية الناتجة من جملة تأملاتهم، ومما يسمونه كشوفا وتجليات، تفضي في النهاية إلى فهم مغاير وعميق في الوقت ذاته، تصل في بعض الأحيان إلى نقاط لم يصل إليها العلم الحديث ذاته، وإن كان وجه الوصول إليها غير ظاهر، فإن توافقها مع العلم يؤيد صدقها، ويرفع عنها مزاعم البطلان.

المبحث الأول

ما قبل الكون

لم يعد مقبولا في الأوساط العلمية القول بأزلية الكون، وتذهب أغلب النظريات العلمية إلى القول بأن للكون بداية، وأشهرها نظرية الانفجار العظيم، التي ترى أن الكون بدأ من نقطة حرجة متناهية في الصغر، غير أن السؤال هنا: أين كانت تلك النقطة، في أي ظرف مكاني وجدت؟ وهي بلا شك خارجة عن الزمان والمكان المعروفين؛ لأنهما نشآ بعد الانفجار نفسه.

فماذا كان قبل الكون كما تقول الفيزياء؟ لا تستطيع الفيزياء القائمة على التجريب، أو القياسات النظرية أن تذهب أبعد في معرفة ما قبل الانفجار العظيم، وهي إزاء ذلك إما أن تستسلم ويقول أصحابها:" كل نظرياتنا تتحطم عند لحظة الانفجار الكبير... وحتى لو كانت هناك أحداث قد وقعت قبل الانفجار الكبير؛ فلن نستطيع استخدامها لتحديد ما يمكن أن يحدث بعد الانفجار؛ لأن التنبؤ ذاته سيتحطم منذ لحظة الانفجار الكبير"[(1)]، فتلك اللحظة هي لحظة البداية للكون، ولحظة

البداية للفيزياء. غير أن بعض الفيزيائيين يذهب للمغامرة في سبيل قراءة مقبولة لما قبل الانفجار العظيم، وذلك ما ذهبت إليه نظرية التضخم الأبدي، التي تفترض أن الكون نشأ من كون موجود من قبل، حيث حدث انفجار في نقطة متفردة منه، ذلك هو ما يسمى بالانفجار العظيم، "وتشير النظرية إلى أن منطقة كوننا ليست سوى فقاعة واحدة متضخمة في حمام فقاعات من الرغوة الكونية، وقد تبدأ فترة جديدة من التضخم في غرفة معيشتك بعد العصر..."[2] وتفترض هذه النظرية أن كوننا سيحدث فيه انفجار ما في نقطة من نقاطه، مولدا كونا جديدا، وهكذا في سلسلة متتابعة من الأكوان داخل الأكوان، وهذه النظرية تفسر ما قبل كوننا بوجود مشابه، ولكنه يظل مجرد افتراض لا دليل عليه. بل هناك من يرى وصف الكون المتمدد بالفقاعة وصفا غير ملائم، مثل كارل ساجان في كتابه "الكون" حين يقول:" وإنه لأمر مضلل أن نصف تمدد الكون باعتباره نوعا من فقاعة منتفخة ينظر إليها من الخارج، وبالتحديد فلن نعرف قطعا ما كان هو الخارج، ومن الأفضل التفكير فيه من الداخل"[3]، فكارل يرى أنه من العبث معرفة ما هو خارج الكون؛ ربما لأن الأدوات البشرية غير قادرة بعد على الخروج من نطاق الكون المرصود، والخروج بحد ذاته يعد خروجا من الزمان والمكان المعروفين.

وإذا نظرنا إلى التصوف وجدناه سابقا على الفيزياء في تصور أولية الكون، والمقصود هنا ما قبل الانفجار العظيم، فعندما يذكرون الحقيقة المحمدية مثلا؛ فهم يرون أنها سابقة على الكون، بل هي علة لوجوده، يقول ابن عربي:" فالحقيقة المحمدية المنبه عليها "ليس كمثله شيء" وما نزل عليها من النسخ فعدم وليل وظل في أربعة الأربعة، والحقيقة منزهة مرتفعة، ثم خلق الخلق وفتق الرتق، وقدر الرزق..."[4]، فالفتق واقع بعد الحقيقة المنزهة، والفتق هو ما يعبر عنه الفيزيائيون بالانفجار العظيم، ولقد استدل العلماء على هذا بما جاء في القرآن الكريم من قوله تعالى:" أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا..."[5]، ووردت إشارة عند ابن قسي في العلاقة بين الله والعالم، حيث يقول بالتصور الدائري الذي يشبه إلى حد كبير النظرية الدائرية التي ترى أن الكون يمر بدورة من التمدد والانكماش، والبداية والنهاية، وأننا نعيش في دورة من دوراته التي بدأت بالانفجار العظيم، وتنتهي بالانسحاق العظيم، ثم يولد كون جديد، وهكذا. يقول ابن قسي:" بالحكمة الربانية تدور الدوائر، وتلتقي خلقة، وتلتقي طرفا حلقة الدنيا والآخرة، فيعود كل حق إلى حقيقته، ويرجع كل أول إلى حال أوليته"[6]. ولعل من أبرز ما جاء عند المتصوفة فيما قبل خلق الكون المنظور، القول بوجود عالم الذر، فهو عالم خلقت فيه الأرواح، وتعارفت قبل أن تنزل للأرض في الأجساد، جاء عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:" الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف"[7] فالتعارف حاصل في عالم الذر، وليس في عالم الشهادة، "ويبدو أن للإنسان وجودا جمعيا يسبق هذا الوجود الدنيوي العام، ذلك الوجود هو ما اصطلح عليه بعالم الذر"[8]، وبه فسر جملة من المفسرين قول الله تعالى:" وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ"[9] فإن أخذ الميثاق كائن في عالم الذر؛ ولذلك لزمتهم الحجة حيث اعترفوا على أنفسهم أن الله ربهم، وجاءت عند أبي مسلم البهلاني إشارة إلى عالم الذر حين قال في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم:

في عالم النور لم تفتر مساجده = منه فلا تفتكر في عالم الصور[10]

فهو مقرب مقدم على غيره، ساجد لله منذ ذلك الحين، قبل أن يولد في عالم الصور صلى الله عليه وسلم.

ولقد جاء في قصيدة الوادي المقدس -مدونة البحث- ما يشير إلى مرحلة ما قبل الكون، من ذلك قوله:

إِلَى المَلِكِ الأَعْلَى الذِي أَنَا مُؤْمِنٌ = بِتَوْحِيدِهِ فِي عَالَمِيَّةِ ذَرَّتِي[11]

فهو مؤمن موحد منذ كان في الجمع الأول في عالم الذر، قبل أن يولد في عالم الصور، ويرى الشاعر أن الله رقيب على الكون الذي خلقه وأوجده، وهو كذلك رقيب على ما قبل خلق الكون، يقول:

رَقِيبٌ عَلَى الدُّنْيَا وَمَا قَبْلَ قَبْلِهَا = رَقِيبٌ عَلَى الأُخْرَى إِلَى الأَبَدِيَّةِ[12]

المجلد 3 ، العدد 3 ص 300 - 322 (2025)، Volume 3 , Issue 3

فقوله ما قبل قبلها إشارة إلى أن الكون المنظور لا يمثل البداية، بل ثمة في علم الله ما قبل ذلك، ولم يقل الشاعر" ما قبلها" بل قال "ما قبل قبلها"، وهو يشير إلى أن الأكوان متعاقبة، وليست الدنيا التي نحن نعيش فيها بداية للخلق.

كذلك فإن الإشارة إلى حدوث الزمان تعبير عن وجود ما قبل الزمان، وإذا كان الزمان إلى فناء، فإن خالق الزمان الخارج عن حدوده غير مشمول بالفناء؛ بل متحكم بالزمان حدوثا وفناء:

تعاقبت الأزمان بعد حدوثها = وأنت إلهي آخر الزمنية[13]

الزمن يفنى كما بدأ، ويفنيه الله كما بدأه، وليس يعني أن الله هو آخر ما يبقى من الزمنية، بل هو الذي يبقى بعد فناء الزمنية الحادثة.

وجملة القول: إن الصوفية قد تعرضوا لما قبل الكون ونشأته، بينما توقف الفيزيائيون عن ذلك لأنه خارج حدود التغطية العلمية النظرية التجريبية، أما صوفية فإنهم يذهبون فيما يقولون إلى أنها مشاهدات ومكاشفات وصلوا إليها بالوهب الإلهي والفيوض الربانية لا عن علم خط في الألواح، ثم إنهم يقبسون من نور القرآن ما يذهبون في تأويله إلى ما يطاوع فهمهم، وكذلك يفعلون بالأحاديث النبوية الشريفة.

المبحث الثاني

الانفجار العظيم

مع الانفجار العظيم بدأ الكون في التشكل وتمدد حتى بلغ ما بلغ، وما زال في تمدده إلى أن يشاء الله، ثم لا يعلم على وجه اليقين إلى أي سيناريو يؤول، هل يستمر في التمدد؟ أو يعود وينكمش كما بدأ.

والانفجار العظيم هو "عبارة عن أن الكون في البداية كان نقطة متناهية الصغر ومتناهية الكثافة، ثم انفجرت هذه النقطة وتوسعت وكونت كل الكون الموجود حاليا"[14]، بكل ما فيه من عناصر ومركبات وحيوات، وكل ما فيه من الدقائق والحقائق والأجرام، من نقطة واحدة لا تكاد ترى، كان الفتق بعد الرتق، كان الفتق الذي شكل البدايات الأولى للكون الناشئ الفتي، والبدايات ليست كالنهايات، فليس بعد اللحظة الأولى من عمر الكون شيء مما هو موجود الآن، لم تكن العناصر الأساسية مولودة بعد، "بعد مرور (0.01) ثانية على خلق الكون هبطت درجة الحرارة إلى (100) مليار درجة، ولم تكن هذه الحرارة كافية لتوليد البروتونات والنيترونات، إلا أنها كانت كافية لتوليد الإلكترونات وضديداتها البوزيتونات، حيث كانت هذه الجسيمات تخلق وتنتشر بسرعة عالية في جميع الاتجاهات..."[15] وكلما هبطت درجة الحرارة أعطت ظروفا ملائمة لتحولات جديدة، ومع توسع الكون كانت الحرارة تهبط، حتى أصبحت الظروف ملائمة لتكون العناصر الأولى للكون، فكان الهيدروجين، الذي يعد أخف العناصر، وتبعه الهيليوم وغيرها من العناصر البدائية، ومن تفاعل تلك العناصر تكونت المركبات، وتعددت مظاهرها وآثارها، وما نحن البشر إلا جزء من تلك السلسلة الممتدة من التخلق، عبر الزمان الحادث، وفينا من العناصر ما قدر الله وجوده وتشكله.

لقد أدى التوسع المستمر للكون إلى وجود الكون في صورته الحالية، بما فيه من مكونات من الذرة إلى المجرة، ولقد كشف العلماء تمدد الكون وتسارعه عن طريق رصد أشعة الخلفية الكونية، فقد اكتشف بالصدفة عن طريق أرنو بينزياس وروبرت ويلسون[16]، وهو إشعاع كهرومغناطيسي خافت يملأ الكون كله، وهو بقايا الإشعاع الناتج عن الانفجار العظيم.

وليس موضوع الانفجار العظيم ببعيد عن تصريح القرآن بأن السماوات والأرض كانتا رتقا، " أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا"، وقد ذهب المفسرون ومنهم ابن عباس إلى أنهما كانتا ملتصقتين ففصل الله بينهما[17]، " والرتق هو الضم والالتئام والالتحام، والفتق هو الفصل بين الملتحمين"[18]،

ISSN: 3105-8396

المجلد 3 ، العدد 3 ص 300 - 322 (2025)، Volume 3 , Issue 3

ولا شك فهذا التفسير يشبه التفسير الفيزيائي الموسوم بالانفجار العظيم، ولكنه ليس التفسير النهائي ولا يمكن الجزم به، وإنما هي مقاربة ذهب إليها المشتغلون بالإعجاز العلمي في القرآن الكريم، وهي مما يستأنس به المرء في ربطه بين منطوق القرآن ومعطيات العلم الحديث.

وإذا وصلنا إلى التصوف فإن له إشاراته الخاصة حول نشأة الكون من نقطة التفرد، فابن عربي يتكلم عن أرض السمسمة، ويرى أنها تكونت من ذرة قدر السمسمة، "فإنه قد بقي بعد خلق آدم عليه السلام فضلة من خميرة طينته، قدر السمسمة في الخفاء، فمد الله في تلك الفضلة أرضا واسعة الفضاء، إذا جعل العرش وما حواه، والكرسي والسماوات والأرضين وما تحت الثرى، والجنات كلها والنار، في هذه الأرض، كان الجميع فيها كحلقة ملقاة في فلاة من الأرض"[19]، فابن عربي يرى أن الأرض التي تكونت من ذرة بحجم السمسمة أكثر اتساعا من كوننا المشاهد، وأنها إنما وصلت إلى سعتها تلك بمد الله لها، وهذا السيناريو شبيه بسيناريو الانفجار العظيم وتمدد الكون، وهو فهم مبكر لا يقوم على التجريب والقياس بل على الكشوف والفتوح.

والكون الناتج من الانفجار العظيم يقتضي اتحاد جميع النواتج في أصل مادة الخلق، تلك التي سماها الفلاسفة الهيولى، واستعارها منهم الصوفية، " وإنما يعنون بها كل جوهر قابل للصورة، وقولهم: الصورة يعنون به كل شكل ونقش يقبله الجوهر"[20]، واتحاد مادة الخلق لا يخرج الإنسان عنها، فهو جزء من هذا الكون، ومكون من مكوناته، وهو الذي عرفه الصوفية وأقروه، فقد جاء في عنقاء مغرب:" إن العالم بما فيه من جميع أجناسه ومبانيه، وأسافله وأعاليه، ليس الإنسان بشيء زائد على جميع تلك المعاني"[21] فهو من الكون والكون منه، ومادة التركيب مشتركة، تلك التي بدأت بأبسط العناصر إلى أعقد المُرَكَّبَات، وهذا ذاته ما تقوله الفيزياء التي تفسر طريقة تكون الكون بما فيه وتقسمه إلى قوى أربع، بعد أن برد جزئيا عقب الانفجار، ويشير أبو مسلم إلى هذا المعنى في الوادي المقدس فيقول:

مُصَوِّرَ أَشْكَالِ الوُجُودِ مُعَدِّلَ ال = ذَّوَاتِ عَلَى مَا شِئْتَ فِي أَيِّ صُورَةِ[22]

فالوجود له جوهر واحد، ولكن الله يصوره في أشكال مختلفة، كما يعدل الذوات فيخرجها في صور متعددة، ويشمل التعديل تعديل الأمزجة والطباع، واختلاف الميول والحاجات، وكل ذلك التعدد واقع في علم الله وبعلمه:

عَلِمْتَ إِلَهِي الكُنْهَ مِنْ كُلِّ مُمْكِنٍ = كَمَا شِئْتَهُ كَوْنًا مِنَ العَدَمِيَّةِ[23]

فالكنه والحقيقة الباطنة واقعة في علم الله، مشمولة بإحاطته، كما أحاط علما بالكون قبل خلقه، حين كان في العدم، وعلم بعلمه المطلق، وإحاطته التامة أمر المكان والزمان قبل خلقهما:

إِلَهِيَ ظَرْفُ الأَيْنِ أَنْتَ وَرَاءَهُ = مُحِيطٌ وَظَرْفُ الكَرَّةِ الزَّمَنِيَّةِ[24]

وفي موضع آخر من القصيدة يصرح أبو مسلم بأن الكون كان جوهرا فردا، أي نقطة تفرد واحدة لها جوهر واحد، فيقول:

وُجُودُكَ قَبْلَ الجَوْهَرِ الفَرْدِ ثَابِتٌ = وَمَا يَقْبَلُ التَّرْكِيبَ لَيْسَ بِوَحْدَةِ[25]

فالله موجود قبل نقطة التفرد التي منها انبثق الكون، ووجوده سبب في إيجاد تلك البداية، كما أن وجوده السابق ينزهه عما حل بتلك النقطة من تغييرات وتركيب وتكونات، فالذي يقبل التركيب واقع تحت سطوة مركِّب، والله يجل عن ذلك، فهو مطلق الوجود خارج عن دائرة الزمان والمكان والجوهر الفرد.

والإحاطة تقتضي أن يكون المحيط غير المحاط به، وهو دليل على حدوث الزمان والمكان لوقوعهما في الإحاطة، وقد تقرر عند الفيزيائيين حدوث الزمان والمكان بوقوع الانفجار العظيم، فلا مكان ولا زمان قبل ذلك، إلا ما يكون في أكوان أخرى علمها عند الله، هي واقعة خارج حسبة الزمكان المقاس، يقول أبو حامد الغزالي:" الزمان حادث ومخلوق، وليس قبله زمان أصلا... فثبت أنه ليس وراء العالم لا خلاء ولا ملاء، وإن كان الوهم لا يذعن لقبوله. فكذلك يقال: كما أن البعد المكاني تابع للجسم، فالبعد الزماني تابع للحركة، فإنه امتداد الحركة، كما أن ذلك امتداد أقطار الجسم..."[26]، وهذا الكلام تشخيص دقيق

المجلد 3 ، العدد 3 ص 300 - 322 (2025)، Volume 3 , Issue 3

للكشف العلمي عن العلاقة بين الزمان والمكان، أو الأبعاد الأربعة: الطول والعرض والارتفاع وبعد الزمن، والغزالي يقرر أنه لا شيء خارج الزمان والمكان، ولا سطوة لهما إلا على الداخل فيهما.

هكذا يكون الانفجار العظيم حاضرا في المدونة الصوفية باصطلاحات مختلفة، ولكن مؤداها واحد في فهم الكون وحدوده وحدوثه، وفي كونه جوهرا فردا، تحول إلى كون متعدد العناصر متنوع المركبات، وتلك في جملتها مفتقرة إلى سبب أوجد الانفجار، أو مد الكون حتى صار إلى ما هو عليه.

المبحث الثالث

تماسك النسيج الكوني

بعد أن انفجرت نقطة التفرد، أو الجوهر الفرد كما يعبر عنها الصوفية، بدأ الكون في التمدد، بسرعة أكبر من سرعة الضوء، وذلك زمن لا يمكن قياسه، ثم صار إلى سرعة الضوء حين كان عمر الكون 10^{-43} ثانية، في ذلك الوقت كانت درجة الحرارة عالية جدا إلى درجة اندماج القوى الطبيعية في قوة واحدة فائقة، وإنما بدأت بالانفصال بعد ذلك. وفي مرحلة لاحقة بدأت الجسيمات الأولية بالتشكل، "ولم تظهر الذرات في الواقع حتى وصل عمر الكون إلى نحو ثلاثمائة ألف سنة"[(27)] بعد أن برد الكون بما فيه الكفاية لتكونها، وكلما تمدد الكون أكثر بردت حرارته أكثر.

لقد بدأ الأمر مع الأوتار الفائقة، ثم جاء عصر الكواركات، ثم تجمعت الكواركات بكيفيات مخصوصة مشكلة البروتونات والنيوترونات، والأخيرة بدورها شكلت نوى الذرات، فكان الهيدروجين والهيليوم، ثم العناصر الأثقل وصولا إلى اليورانيوم، كانت العناصر تتشكل والكون سائر في تمدده بشكل عشوائي، توزعت فيه المادة الثقيلة والخفيفة بصورة غير منتظمة، ثم أخذت المادة الأكثر كثافة في جذب الأقل كثافة، ومن هنا بدأت ولادة النجوم وتشكلها من سحب الغبار الكوني وأعمدة الخلق السديمية، ويشير القرآن الكريم إلى التمدد الكوني بعد الخلق في قوله تعالى:" وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ "[(28)]، فالقوة الإلهية هي التي أنتجت الكون من أوليته، ثم قضى الله أن يتوسع الكون بقدرته، وهو الذي أثبته العلم الحديث، ففي عام 1929م "شاهد عالم الفلك الأمريكي هابل بواسطة التلسكوب أن المجرات تتباعد عن بعضها بسرعات هائلة"[(29)]، وتفسير الابتعاد بين المجرات هو التوسع المستمر للكون، كما بين القرآن الكريم مرحلة تجمع السدم وولادة النجوم في قوله:" ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ"[(30)]، فالدخان إشارة إلى السدم التي تظهر كأنها غبار كوني، وهي في الحقيقة مصنع للنجوم ثم ما يتبعها من الكواكب والأجرام الأخرى.

من هنا بدأ النسيج الكوني بالتشكل والتماسك عبر قوى أربع: القوة الجاذبية، والقوة الكهرومغناطيسية، والقوة النووية الشديدة، والقوة النووية الضعيفة[(31)]"، وتلك القوى تتحكم بالكون كله، من أدق الدقائق إلى أعظم الأجرام، وهي سبب تماسكها الشديد، وحفظها للنظام الكوني في صورته البديعة المحكمة البناء.

ولقد فطن أهل التصوف إلى هذا التماسك في النسيج الكوني حين استحضروا عالم الإنسان، أو العالم الأصغر الذي عبر عنه الإمام علي كرم الله وجهه:

وَتَحْسَبُ أَنَّكَ جُرْمٌ صَغِيرٌ = وَفِيكَ انْطَوَى العَالَمُ الأَكْبَرُ[(32)]

فالإنسان بمكوناته وذراته كون متعدد الأقطار بعيد الأغوار، كثير التنوع ، تماما كما هو الحال في العالم الأكبر من حوله، جاء في "خلع النعلين" : فلو كشف غطاء الحكمة عن أبصار الممترين، وعيون المميز من القوم العمين، لرأوا رقائق أنفسهم راكعة مع الراكعين، ساجدة مع الساجدين، وأشباحهم الظاهرة الجامعة لهذه الدقائق الباطنة كأنها خشب مسندة، وعمد ممددة، لا يستطيعون السجود وهم سالمون"[(33)] فإذا أراد الإنسان أن ينظر في تماسك الكون الكبير، فلينظر إلى تماسك

كونه الصغير، وليعلم أنه بمثل ما ينهدم كونه الخاص ينهدم الكون العام، وهذا ما يفسر عناية الله تعالى في تشريعه بحفظ النفس وصيانتها من موارد التلف؛ ذلك لأن تلفها يعني تلف الكون، الذي لا يقوم إلا على الصلاح.

ويشرح ابن عربي مراحل تماسك النسيج الكوني في عنقاء مغرب، فيقول:" ولما خلق الله هذه العناصر الأُوَل، على الخلق الذي قدره في الأزل، جعلها سبعا طباقا، وأسكنها أقواتا وأرزاقا، كما أسكن الطباق العلا معارف وأخلاقا، فتماشت طباق الأرض، وحك بعضها في بعض، فتولد بينهن لهب، ذو سبع شعب..."(34) ومهما كان التوصيف أقرب إلى الخيال؛ فإنه لا يخرج بعيدا عن السيناريو الذي يخطه العلم الحديث، حيث التجمع والتماسك في طبقات، وحيث النار والحرارة التي تبرد لتشكل الأجرام.

وفي الوادي المقدس إشارات إلى تماسك القوى وتكاملها، حيث تقوم كل قوة بوظيفتها:

وَصَوَّرْتَ تَكْمِيلَ القُوَى. كُلُّ قُوَّةٍ = لِمَا خَصَّهَا فِي ذَاتِهَا مِنْ وَظِيفَةِ(35)

وقد سبق أن العلماء حددوا القوى المتحكمة بالكون في أربع قوى، والشاعر يراها مكملة لبعضها تماما كما يراها العلم الحديث، فإذا كانت الجاذبية تسحب الأرض للشمس مثلا؛ فإن القوة الكهرومغناطيسية تمنعها من السقوط فيها، وكذا الشأن في القوى النووية التي تحفظ تماسك مكونات الذرة، ولولاها لتهدم بناء الذرات، ثم بناء الأجرام والكائنات، "فعندما يلتصق بروتون بنيوترون أو ببروتون آخر، يتضمن الالتصاق ما مجموعه ستة كواركات، يتفاعل كل منها مع الأخريات، ويذهب معظم القوة لربط الكوارك معا في صورة مجموعات مكونة من كواركات ثلاثة"(36) ولولا هذه القوة التي تسكن في أعماق الذرة ولا تظهر للمشاهدة، لما أمكن بقاء الكون على حالته.

وفي موضع آخر يؤكد أبو مسلم تماسك الذرات بقبض الله لها:

وَيَا قَابِضَ الأَشْيَاءِ قَبْضَةَ قُوَّةٍ = لَهَا السَّلْبُ وَالتَّقْدِيرُ فِي كُلِّ ذَرَّةِ(37)

وإنما كتب الله قوته وقدرته في قوى الطبيعة التي حفظت الأشياء من الانفلات والتفكك، وليست قائمة بالأجرام الكبيرة وحدها، وإنما تدخل الذرة على صغرها في ذلك، بقانون إلهي واحد، لم يصل البشر إلى اليوم إلى صيغة نهائية له، فالعلم الآن يحاول إيجاد نظرية لكل شيء، تجمع بين النسبية العامة، والكمومية، بين ما دق وجل، بين الذرة والمجرة، ذلك القانون الواحد الحاكم بالتماسك الكوني البديع.

ومن أحسن ما جاء في القصيدة معبرا عن التماسك الكوني قوله:

حَفِظْتَ نِظَامَ المُبْدَعَاتِ فَلَمْ يَضِعْ = مِنَ الحِفْظِ وَالإِحْصَاءِ مِثْقَالُ ذَرَّةِ
وَلَوْلَا تَجَلِّي الحِفْظِ زَالَ وُجُودُهَا = وَصَارَتْ إِلَى حَالَاتِهَا العَدَمِيَّةِ
وَلَوْلَا دَوَامُ الحِفْظِ لَمْ تَأْتَلِفْ عَلَى = نِظَامَاتِهَا الأَضْدَادُ أَحْكَمَ أُلْفَةِ(38)

والأبيات تتضمن مجموعة من القضايا:

1- الكون لا يخرج شيء منه، قد تتحول المادة إلى طاقة أو الطاقة إلى مادة، أو المادة إلى مادة أخرى، أو الطاقة إلى طاقة أخرى، ولكن يظل الكون محتفظا لا يفقد شيئا ولو مثقال ذرة، وهذه الأمر تقرره القاعدة التي تقول: المادة لا تفنى ولا تستحدث من العدم، وليس المقصود بوجودها الخلود، وإنما هي ناشئة مع الكون محاصرة فيه لا تخرج عنه، قائمة به ما دام قائما، وهذه المعاني يقررها البيت الأول.

2- لولا وجود الإحاطة الحافظة لرجعت المادة إلى عدم الوجود، والمقصود بالعدمية أن يلغي بعضها بعضا، إذ مما تقرره الفيزياء، أن لكل مادة مادة مضادة، " في غضون لحظات الانفجار العظيم، تمكنت المادة من أن تكون لها الكلمة العليا، وفنيت المادة المضادة، واستمرت الطاقة الحرارية المتخلفة عن هذا الدمار"(39)، ولولا الحفظ الإلهي لما كان للمادة أي وجود.

المجلد 3 ، العدد 3 ص 300 - 322 (2025)، Volume 3 , Issue 3

3- لم يقتصر الأمر على التوازن الذي حققه الحفظ الإلهي في تماسك الكون، إنما دوام الحفظ عامل مهم، به استمر ويستمر إلى أن يشاء الله، ويقدر عمره منذ الانفجار العظيم إلى الآن بـ 13.8 مليار سنة ضوئية، ولم يخرج طول هذه المدة على النظام المحكم الذي بني عليه، جامعا بين الأضداد في بوتقة واحدة، دون أن يلغي بعضها بعضا، ففي كل ذرة تجتمع البروتونات ملتصقة ببعضها بالرغم من التنافر بينها لاتحاد الشحنة، وستظل تجتمع بالقوى النووية بفضل دوام الحفظ الذي أشار إليه الشاعر.

وفي موضع آخر يشير الشاعر إلى أن سلطان الله شامل للجزء والكل، لا يخرج عن تصرفه شيء:

إِلَهِيَ سُلْطَانُ الوَلَايَةِ بَاهِرٌ = لِكُلِّيَّةِ الإِمْكَانِ وَالجُزْئِيَّةِ[40]

فسلطانه تعالى باهر قاهر للكل والجزء، للمجرة والذرة، للكمومية وللنسبية، وهناك تلتقي النظريات حيث لم يعرف البشر بعد، إنه سلطان الله الباهر، والسبب الأوحد في تماسك النسيج الكوني، ذلك التماسك الذي يؤدي إلى جمع الأضداد، والتوفيق بينها:

وَيَا جَامِعَ الأَضْدَادِ جَمْعًا مُوَفِّقًا = وَيَا جَامِعَ الأَمْثَالِ بَعْدَ تَشَتُّتِ[41]

فتجتمع البروتونات والنيوترونات، والإلكترونات في الذرة الواحدة بفعل القوى النووية، التي هي شيء من سلطان الله، وهذا الجمع جمع توفيق، له غايته ووظيفته، إذ يأتي هذا التركيب مهما لبقاء الذرة وبنائها، والذرة هي أساس البناء لكل شيء من بعد، والأعمق من ذلك وجود كواركات علوية مقابل كواركات سفلية في كل بروتون ونيوترون، ترتبط ببعضها بشدة، وحين اختبروها في معجلات الهدرونات وجودوا "أن القوة بين الكوركات قوة غريبة جدا، فكل قوى الطبيعة الأخرى تضعف مع زيادة المسافة، وتقوم القوة داخل الكوارك بفعل العكس، فقد شبهت بقطعة قابلة للتمدد، تنجذب بقوة كلما شدت"[42].

كما جعل الله لكل جسيم ضديدا، فالإلكترون ضده البوزوترون، البروتون ضده البروتون المضاد وهكذا[43]. كل هذا التماسك العجيب والجمع بين الأضداد كائن بسلطان الله الباهر.

وهكذا تلتقي الفيزياء بالتصوف، وتتجلى معالم الوفاق بين العلم التجريبي والعلم الوهبي، فلا تناقض ولا تصارع، بل تكامل يفضي إلى تعميق الإيمان بدراية المتصوفة، وبأنهم يرون بنور الله ما غاب كالقبس كما يقول أبو مسلم نفسه:

يَرَوْنَ بِنُورِ اللهِ مَا غَابَ كَالقَبَسْ = لِأَفْهَامِهِمْ كَالأَنْجُمِ الزُّهْرِ مَا الْتَبَسْ[44]

المبحث الرابع

الطاقة لا تفنى

طبقا لقانون حفظ الطاقة الفيزيائي؛ الذي ينص على أنه في نظام معزول، الطاقة لا تفنى ولا تستحدث، ولكن تتحول من شكل إلى آخر. أي أن المجموع الكلي للطاقة ثابت لا يتغير"[45]، فإن كوننا الرحيب كون معزول عما هو خارجه؛ ولذلك فالطاقة مهما كانت أشكالها في داخله لا تنفى، بل تتحول من شكل إلى آخر، فالشمس مثلا تحرر كما كبيرا من الطاقة عبر الاندماج النووي فيها، تتحول تلك الطاقة إلى أشعة فوق بنفسجية وأشعة سينية، وتلك بدورها تتحول إلى أشكال أخرى، كما يمكن أن تتحول الطاقة إلى مادة أو كتلة، كما حدث في الانفجار العظيم، فقد تحولت الطاقة إلى جسيمات وكواركات وبروتونات وذرات وما تبعها من تشكلات متنوعة من المادة، كالنجوم، التي من شأنها أن تتحول مرة أخرى إلى طاقة في الاندماجات النووية داخلها.

المجلد 3 ، العدد 3 ص 300 - 322 (2025)، Volume 3 , Issue 3

يرى الصوفية أن الروح ما هي إلا طاقة، وهي لا تموت، بل تنتقل من الجسد بالموت إلى السبح في ملكوت الله كيفما قدر الله في علمه، وكل شيء في الكون يتبدل، "إن التراب يتبدل إلى نبات ويصير النبات حيوانا، ويصيد البشر الحيوان، وعلى هذا النسق فإن وراء كل موت حياة أسمى وأرقى، وهذه المراحل موجودة أيضا في خلق الإنسان... وموت الجسم إذن مقدمة لعالم الروح..."(46)، فهو انتقال للطاقة وتحول لها، لا يصادف فناء، كما أن الجسد الأرضي المادي يتحول في تحلله إلى مكونات أخرى، منها بخار الماء وأحماض ومعادن، وغازات كالميثان، وأملاح معدنية(47).

وأعم من ذلك في التناول الصوفي ما قاله ابن عطاء الله السكندري في الحكمة الرابعة عشرة:" الكون كله ظلمة، وإنما أناره ظهور الحق فيه، فمن رأى الكون ولم يشهده فيه أو عنده، أو قبله أو بعده فقد أعوزه وجود الأنوار، وحجبت عنه شموس المعارف بسحب الآثار"(48)، فالسكندري يرى أن الطاقة النورية التي بها نبصر الكون ونعرف تصاريفه إنما مصدرها الله الخالق لهذا الكون، وإلا فأصل الكون الظلمة التي تعادل الحجاب عن رؤية المسبب للكون بالإيجاد، والأصل أن يرى الناظر إلى الكون تجلي الله فيه، وقريب من هذا المعنى تأويل الحديث الشريف:" حجابُه النُّورُ لَو كشفَها لأحرقت سبحاتُ وجهِه كلَّ شيءٍ أدركَه بصرُه"(49)، وإنما النور نور التجلي وهو طاقة ترد على الكون من شأنها أن تحرق ما فيه ومن فيه.

وإذا وصلنا إلى الوادي المقدس يصادفنا قول أبي مسلم:

إِلَى المَلِكِ الأَعلَى الذِي أَنَا مُؤْمِنٌ = بِتَوْحِيدِهِ فِي عَالَمِيَّةِ ذَرّتِي

إِلَى المَلِكِ الأَعْلَى الذِي أَنَا لَاهِجٌ = بِتَسْبِيحِهِ مِنْ قَبْلِ إِظْهَارِ نَشْأَتِي(50)

وفي البيتين إشارة إلى وجود الطاقة الروحية قبل وجودها في الجسد، وقد عرَّفَها اللهُ فضلَه فعرفته "ألست بربكم؟ قالوا: بلى." والشاعر يقرر أنه ما زال يلهج بالتسبيح منذ كان في حالته تلك، أو مرحلة الطاقة الروحية في عالم الذر.

ولأبي مسلم إشارة أوضح إلى التحول من حالة إلى أخرى للمادة حين يقول:

بَرَأْتَهُمُ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ مُعَلَّلٍ = فَمَا الحَلُّ وَالتَّوْلِيدُ فِي أَيِّ نَشْأَةِ

وَمَا الحَلُّ وَالتَّوْلِيدُ إِلَّا تَسَلْسُلٌ = وَدَوْرٌ وَإِلَّا لِاخْتِيَارٍ وَقُدْرَةِ(51)

والمقصود بالحل تحلل المركبات، والتوليد إنتاجها من العناصر المتحللة، وكلاهما من التحول المقصود، الذي يفضي إلى تعدد الأشياء لا إلى الفناء، والشاعر يعرض القضية في صيغة سؤال: ما الحل والتوليد في أي نشأة؟ أي ما طبيعة هذه التحولات للطاقة والمادة؟ ثم يجيب في البيت الثاني بأنها تسلسل في دورة الحياة، ودور لا بد منه للطاقة والمادة، وكل ذلك اختيار الله، وقدرته سبحانه.

ومن الدلالات التي ساقها أبو مسلم، ولها ارتباط بالطاقة التي لا تفنى، قضية أنه لا ينقص من ملك الله شيء، فنحن حين نرى نقصا في الأموال والأنفس والثمرات، أو زيادة في الأموال والخيرات، فإنها دائرة في هذا الكون غير خارجة عن ملك الله، وأصحابها الذين غادروها بالموت أو الفقد، هم وما فقدوا غير خارجين عن دائرة ملك الله المحكومة بالإحاطة، يقول الشاعر:

عَلَى أَنَّهُ لَمْ تَنْتَقِلْ عَنْكَ ذَرَّةٌ = مِنَ المُلْكِ فِي الآزَالِ وَالأَبَدِيَّةِ(52)

والآزال إشارة بعيدة في الزمن القديم، تشمل ما قبل ميلاد الكون، وتشمل الكون بعد ميلاده، وعدم انتقال شيء من ملك الله عنه يعني أنه لا يفنى، وإن تحولت صوره، وهو مقتضى القانون: الطاقة لا تفنى. وهذا الأمر من الحفظ مستمر إلى الأبدية، سواء أبدية الكون الذي مصيره الانهيار، أو ما يعقب ذلك من أحداث هي في علم الله.

وجملة القول أن كل شيء في هذا الكون لا يخرج عنه، ولا يفنى بالتقادم، وإنما هو متحول إلى أشكال وصور، وإلى طاقات وكتل، وكل ذلك محسوب محسوم في علم الله الذي لا تغيب عنه أمور الكون المشمول بالإحاطة، لا شك أن هذا التوافق بين الفيزياء والتصوف جزء من مؤيدات صحة النظر الصوفية، وهي قراءة توافقية مقبولة، بعيدا عن تكلف التأويل بما يسوق إلى الزعم بأن القانون "الطاقة لا تفنى" يراد بها الأزلية والخلود، فالمقصود كما هو واضح بقاؤها في الكون الذي هو بحد ذاته

ISSN: 3105-8396

المجلد 3 ، العدد 3 ص 300 - 322 (2025)، Volume 3 , Issue 3

حادث لا يوصف بالقدمية، ووجوده معتمد على موجده تعالى من العدم، ولا نقاش لما وراء ذلك؛ لأنه من جهة الغيب، وهو علميا مما لم تصل إليه عقول البشر.

المبحث الخامس

مجرد وهم

هذا موضوع عميق جدا، خلاصته أن الحياة التي نحياها مجرد وهم لا حقيقة، وأنها تتأثر بطريقة رصدنا لها، وكلما اختلف الراصد اختلفت النتيجة، فليس للحياة صورة ثابتة، ومن أبرز التطبيقات الفيزيائية مبدأ عدم اليقين، "فإذا كان ليس بالإمكان تحديد موقع الجسيم وزخمه بدقة لا متناهية في آن واحد؛ فإن هذا سيحرم الميكانيك الكلاسيكي من أهم شروطه وهو معرفة الموضع الابتدائي، والسرعة الابتدائية للجسم"[(53)]، وهذا يعني عدم القدرة على الرصد الدقيق لمواضع الأجسام، على المستوى الذري أو الأجرام الكبيرة، " على أن النظر الدقيق في هذه المسألة يبين أن التأثير الكمومي لا يظهر في حسابات العالم الجهري الكبير على نحو مؤثر"[(54)] وهذا يعني أنه لا داعي للتخوف المبالغ فيه من عدم دقة الحسابات الفلكية، لقد ظهر هذا المبدأ في محاولة رصد الإلكترون، " إن كل الأحوال التي يمر بها الإلكترون من مكان إطلاقه إلى اصطدامه باللوح الحساس، هي أحوال احتمالية صرفة؛ فنحن لا نستطيع التأكد من مكان وجوده على مسار ارتحاله في زمن معين، بل لدينا عدد من الاحتمالات عن وجوده في أماكن معينة وأزمنة معينة"[(55)]، وكذا الحال في تجربة الشق المزدوج لمعرفة طبيعة الضوء هل هو جسيم أم موجة، فحين أطلق الفوتون من شقين مزدوجين كان أمامه أن ينطبع في شاشة حساسة إما على شكل عمودين مطابقين للشقين، أو أن ينطبع على شكل أعمدة كثيرة، وكان التفسير أنه لو انطبع على شكل عمودين فهو جسيم، وإذا انطبع على شكل أعمدة فهو موجة، فكانت النتيجة أن الضوء يسقط على شكل أعمدة، أي أنه يسلك سلوك الأمواج المتداخلة، لكن حين وضعوا له أجهزة مراقبة غير سلوكه وسلك مسلك الجسيم فسقط في خطين مزدوجين، وتفسير هذا أن الإلكترون كان حرا قبل المراقبة والرصد، وحين رُصد أصبح مقيدا بالراصد، وهذا يعني أن الرصد بحد ذاته يسهم في خلق وَهْمٍ نصدقه.

أدى وصول أينشتاين إلى النظرية النسبية الخاصة إلى تعديل نظرتنا عن الزمان والمكان، فهما ليسا ثابتين، بل يتأثران باعتبارات الحركة النسبية بين الراصد والمرصود، "فالأجسام المتحركة تبطئ من حركتها ويقصر طولها في اتجاه الحركة"[(56)] وهذا يعني أن الراصد المتحرك يرصد الجسم بطول مختلف عن الراصد الثابت، ولا نستطيع بالعين المجردة أن نلحظ هذا؛ لأن الفرق دقيق جدا لا يمكن إدراكه، إلا إذا تمكنا من السفر بسرعة قريبة من سرعة الضوء، فحينها سيكون من السهل ملاحظة الفرق في طول الجسم المرصود.

ومن مظاهر الوهم ما يسمى بتأثير دوبلر، وخلاصته أن الموجات الصوتية التي تقترب من المراقب أقصر من الموجات التي تبتعد عنه، فصوت سيارة الإسعاف يزداد حدة كلما اقترب منا، ولكنه يضعف كلما ابتعد عنا[(57)]، وهذا يعني أنه يختلف بحسب المراقبة والرصد، مع العلم أنه ثابت في الحقيقة.

إزاء تلك المظاهر الآنفة الذكر، ذهبت مجموعة من علماء الفيزياء إلى أن الكون الذي نعيش فيه مجرد وهم لا حقيقة له، وأنه يتشكل بناء على المراقبة والرصد، وربما نحن نعيش في محاكاة حاسوبية،

"يقدم بوستروم ما يراه على أنه النتيجة المنطقية لاحتمالية احتواء الكون على العديد من الكائنات التي تفوقنا بقدر هائل من حيث الذكاء والتقنية، وفي ظل القوة الحاسوبية الضخمة المتاحة لهذه الثقافات يمكنها بسهولة محاكاة التاريخ الكامل لعمليات التفكير لدى الجنس البشري؛ وذلك يعني أننا نعيش بالتأكيد في محاكاة حاسوبية"[(58)] وهذا أمر نظري افتراضي لا

يمكن الأخذ به كونه حقيقة، ولكن إذا أمعنا النظر في الواقع الافتراضي الذي طوره البشر نرى كيف يمكن أن يخلق وعيا وقناعة حين الاندماج فيه.

تجدر الإشارة أخيرا إلى ما يسمى بالتشابك الكمي، الذي يفترض وجود اتصال آني بين الأشياء، وهو اتصال أسرع من سرعة الضوء، وقد يتطور إلى درجة نقل الأجسام من مكان لآخر بصورة لحظية، " فإذا نشأ إلكترونان مع بعضهما يدور الأول مع عقارب الساعة، بينما يدور الثاني عكس عقارب الساعة، فسيلغيان دورانهما، والفيزيائيون يقولون: إن الدوران الكلي يساوي صفرا"[59]، ولو كان أحد الإلكترونين موجود في مجرتنا، والآخر في مجرة تبعد عنا ملايين السنين الضوئية؛ فإن الاتصال بينهما يظل قائما بصورة آنية، وهذا يعني أن إنسانا بما فيه من ذرات، لها قرين موجود في مكان ما، يلغي بعضها بعضا، فالإنسان مقابل الإنسان الآخر يساويان صفرا.

هذا يكفي للإشارة إلى أننا نعيش داخل وهم، ليس مساويا لما نرصده بأعيننا، ولا بأدوات رصدنا التي ندعي تطورها، فهناك من الأمور المجهولة الكثير، ولكن ما الذي وصل إليه الصوفية حول موضوع الوهم، وكيف نظروا إلى الحياة التي نعيشها من منظور كونها وهما؟

يرى بعض الصوفية إمكانية التنقل الآني من مكان لآخر، ويسمى أصحاب هذه القدرة بأهل الخطوة، حيث لا يحتاجون إلا خطوة واحدة توصلهم حيث يريدون، وفي الأمر طي للأرض وللزمن، قد يكون له تفسير فيزيائي لم يكشف حتى اليوم، وربما يأتي يوم ويكون أمرا مسلما به، كما هو شأن التخاطر بالهاتف الذي كان ضربا من المستحيل، وأصبح اليوم بالصوت والصورة بصورة لحظية، وبهذه القدرة (طي الأرض) يكون الصوفية قد تقدموا على العلم الفيزيائي خطوة للأمام منذ وقت مبكر، وفي قصة إحضار عرش بلقيس في قصة النبي سليمان مشابهة بطي الزمكان، حيث أراد العفريت أن يحضره في مدة ذات مقدار (قبل أن تقوم من مقامك)، ولكن الذي عنده علم من الكتاب قال:" أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك"[60] وفعلا استطاع تحقيق ذلك، فهو لم يعتمد على السرعة في قطع المسافات، بل على النقل الآني الذي يحدث في لمح البصر، جاء في تفسير ابن كثير:" وقوله :(أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك) أي: ارفع بصرك وانظر مد بصرك مما تقدر عليه، فإنك لا يكل بصرك إلا وهو حاضر عندك. وقال وهب بن منبه: امدد بصرك، فلا يبلغ مداه حتى آتيك به."[61]، وجاء في تفسير القرطبي:" وقيل: أراد مقدار ما يفتح عينه ثم يطرف، وهو كما تقول: افعل كذا في لحظة عين"[62]، وهذا الوقت القصير الذي لا يكاد يذكر إنما يمثل طيا للزمكان، وهو يعني من الوجهة العلمية أن إدراكنا للزمكان مجرد وهم، لا يمثل الحقيقة الثابتة.

ومن قصص المتصوفة المعبرة عن فهمهم لطبيعة الزمكان غير المدركة للعامة قصة عليّ الخَوَّاص، "كان لا يراه أحد يصلي الظهر في جماعة ولا غيرها، بل كان يرد باب حانوته وقت الأذان، فيغيب ساعة ثم يخرج، فصادفوه في الجامع الأبيض، برملة لدّ في صلاة الظهر، وأخبر الخادمُ أنه دائما يصلي الظهر عندهم"[63]، وكأنه يدخل في ثقب دودي ويخرج من جهة أخرى كما تتنبأ الفيزياء، دون أن يكون للزمكان قيمة، وهذه القدرة على تخطي حاجز الزمكان، تنبئ عن دراية بوهميته، وأنه لا يساوي الإدراك الظاهر.

ومن قصصهم الدالة على وهم الزمكان، ما حكاه خليل الصياد قال:" غاب ابني محمد فوجدنا عليه وجدا شديدا؛ فأتيت معروفا الكرخي فقلت: يا أبا محفوظ، غاب ابني وأمه واجدة عليه...

فقال: ما تشاء؟

فقلت: ادع الله أن يرده.

فقال: اللهم السماء سماؤك، والأرض أرضك، وما بينهما لك، ائت بمحمد.

المجلد 3 ، العدد 3 ص 300 - 322 (2025)، Volume 3 , Issue 3

قال خليل: فأتيت باب الشام فإذا هو واقف، فقلت: أين كنت يا محمد؟ فقال: يا أبتِ كنت الساعة بالأنبار"[64]. وإذا تأملنا مضمون الدعوة التي دعا بها معروف الكرخي، وجدناه يختصر السماء والأرض بجعلها في ملك الله، الذي هو قادر على أن يداخل أولها بآخرها فينسل محمد المفقود إلى أبويه من تضاعيف النسيج المحكم، فكان كذلك بقدرة الله.

ومثل هذه الكرامات تعد خرقا للعادة، وأمر يرتاب فيه العامة؛ لأنه لا يتصور عقلا، وكثير من الماديين لا يقبلون هذه القصص؛ لأن عقولهم لا تستوعب ما لم يثبته البرهان العلمي، على أن البرهان العلمي يقترب خطوة خطوة إلى البرهنة على الماورائيات، بل لقد صار علما من العلوم: (كالماورائيات أو الميتافيزيقيا، والباراسيكولوجيا أو ما وراء علم النفس) وتلك علوم تخضع للتجارب والفحص، وعما قليل تصبح حجة يحتج بها.

والصوفية يقفون إزاء ظواهر خرق العادة وقفة حذر، فهم لا يرون الجهر بهذه الأحداث، بل هي سر من الأسرار، يبطلها الجهر بها، ويفسدها علم الناس بأربابها، وفي قصة علي الخواص وإغلاقه الباب على نفسه دليل على الكتمان، ولولا أن الناس رأوه برملة لدّ وأن خادم المسجد أخبر عن صلاته عندهم كل ظهر، ما عرف الناس الحقيقة. وقد أشار ابن عربي في الفتوحات المكية إشارة مهمة حين قال:" سئل أبو يزيد عن طي الأرض فقال: ليس بشيء، فإن إبليس يقطع من المشرق إلى المغرب في لحظة واحدة، وما هو عند الله بمكان"[65]، فليس طي الأرض دليلا على قرب العبد من الله، وفي التعبير ما يدل على إقراره بوجود الظاهرة، ويعلق ابن عربي على مسألة خرق العادة بقوله:" اعلم أن مقام خرق العادة على وجوه كثيرة، منها ما يكون عن قوى نفسية، فإن أجرام العالم تنفعل للهمم النفسية"[66]، وفي هذا التفاعل مقاربة مع ما يحدث في عالم الكوانتم حيث إن التسخين للحديد يؤدي إلى غياب الإلكترونات من مدارها وظهورها في مدارات أعلى، وقد وجد العلماء أنها لا تنتقل من مدار إلى مدار، بل تختفي من الأول وتظهر في الثاني، ولعل الهمم النفسية التي أشار إليها ابن عربي تفعل هذا الفعل، حيث يمكن أن تختفي من مكان وتظهر في غيره، كل ذاك مجرد مقاربة مبنية على المتشابهات من الأحداث، ولا يراد منها في البحث اليقين، بل قد يأخذها من هو مختص ويبحث أمرها بتمعن أكبر.

وختاما فإن الجيلي لا يرى للأشياء وجودا ذاتيا، "وإنما هي محض خيالات، استعارت صفة الوجود من الحق تعالى"[67] وهو اعتراف منه بأن الحياة مجرد وهم، كما اعترف ابن عربي بوهم الوجود، وانتهى "إلى أن العالم ليس له في بصيرة العارف وجود حقيقي، بل وجود متوهم"[68]، وفي هذه الأدلة كفاية.

وإذا وصلنا إلى قصيدة الوادي المقدس، لمعرفة تجليات الوهم فيها كما يراه الشاعر أبو مسلم، وجدناه يقول:

هُوَ اللهُ بِاسْمِ اللهِ أُنْسِي شُهُودُهُ = وَلَوْ غَيَّبَتْهُ العَيْنُ مِتُّ بِوَحْشَتِي

هُوَ اللهُ بِاسْمِ اللهِ مَحْقُ إِرَادَتِي = مُرَادِي، وَإِثْبَاتِي لِمَحْوِيَ بُغْيَتِي[69]

فالوجود الحقيقي حتى بالنسبة للإنسان هو وجود الله تعالى وتجليات وجوده في مخلوقاته، ولو غاب الله عن عين الإنسان وإدارك شهوده لاستوحش العبد، ووجد الكون خاليا لا وجود له وبه، كما أن وجود الله الحقيقي يمحق وجود الأغيار ويمحق إرادة المريدين، وإنما الوجود الحقيقي هو الوجود بالله، وذلك ما يسعى الشاعر للوصول إليه كما يصرح، وهذه الفكرة شبيهة بالفكرة الفيزيائية التي تقضي بأن مراقبة الجسيم تغير سلوكه، فمراقبة الإنسان لنفسه ومصالحه الدنيوية، ونظرة الناس له، وابتغاء حاجاته المادية والوظيفية وغيرها، كلها تجعل منها سلوكا هو مجرد وهم، وإنما السبيل أن تمحى النفس بالله وفي الله حتى لا تلتفت إلى غيره، كما يترك الجسيم بلا رقابة ليحقق سلوكه الطبيعي. ومثل هذا المعنى قوله:

إِلَهِيَ أَشْغِلْنِي بِتَجْرِيدِ خَاطِرِي = مُرَاقَبَةً لِلْحَقّ فِي كُلِّ لَحْظَةِ[70]

ISSN: 3105-8396

المجلد 3 ، العدد 3 ص 300 - 322 (2025)، Volume 3 , Issue 3

فمراقبة الله في كل لحظة مقرونة بتجريد الخاطر، وهي مهمة صعبة، حين يخلي الإنسان تفكيره من الخواطر تماما، فإذا استطاع فعل ذلك كان متوجها بالكلية إلى مراقبة الحق، التي هي في الحقيقة ترك للمراقبة، وبها يبصر الإنسان الحقيقة ويتخلص من الوهم، وبذلك يرى نعوت جلال الله، يقول الشاعر:

وَلَمَّا تَجَلَّتْ لِي نُعُوتُ جَلَالِهِ = تَصَاعَدْتُ مِنْ نَفْسِي إِلَى العَدَمِيَّةِ[71]

فانظر كيف فنيت نفسه وصارت عدما، وكيف تخلص من الرقابة النفسية حتى تجلت له الحقيقة، وأصبح يميز بين الحقيقة والوهم، على أن الإنسان بلغة الأرقام الفلكية يساوي عدما على التحقيق، وهو مجرد صفر بين الأرقام، وكذلك في لحظة التجلي ينكشف وهم وجوده، ويدرك حجمه الحقيقي، ويدرك أنه مجرد مجاز في الوجود، يقول الشاعر:

وَيَا حَيُّ. مُعْطِ كُلَّ حَيٍّ حَيَاتَهُ = مَجَازًا، وَحَيٌّ نَفْسُهُ بِالحَقِيقَةِ[72]

فلا حقيقة لحياة الإنسان إلا مجازا، فمن جهة كمية لو قارناها بعمر الكون المشهود الذي يبلغ أكثر من 13,8 مليار سنة ضوئية؛ فإن عمر الإنسان الذي يبلغ 100 سنة لا يتعدى سبعة وعشرين من عشرة مليون من المئة (0.00000027%) من عمر الكون، فانظر إلى الرقم الذي لا يساوي شيئا، ومن جهة معنوية فإن حياة الإنسان هي مجرد وهم بالمقارنة بالحياة الآخرة، " وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إلا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ"[73] ولأجل تلك الاعتبارات الكمية والمعنوية تكون الحياة مجرد وهم.

ومما يعضد وهم الوجود الإنساني وضآلته من جهة كمية، وقوع الكون المشهود ضمن الكرسي، ووقوع الكرسي ضمن العرش، يقول الشاعر:

بِسِرِّ اسْمِكَ القَيُّومِ، كُرْسِيُّكَ احْتَوَى = سَمَاوَاتِكَ العُلْيَا، وَجِرْمَ البَسِيطَةِ[74]

وهذا مصداق الحديث الذي روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم:" ما السَّماوات السّبع في الكُرسيّ إلَّا كحلقةٍ ملقاةٍ بأرضٍ فلاةٍ، وفضلُ العرشِ على الكُرسيِّ كفضلِ تلك الفلاةِ على تلك الحلقةِ"[75]، فالكون المرصود يساوي حلقة في صحراء واسعة، إذا قورن بالكرسي، والكرسي يساوي حلقة في صحراء واسعة إذا قورن بالعرش، فما قيمة الإنسان حينها بالمقارنة مع العرش؟! إنه مجرد وهم لا أكثر، وهو في الكون المرصود وحده مجرد وهم، فالكون كبير إلى درجةٍ لا يمكن تصورها، يكفي أن نعلم أن مجرة درب التبانة التي نحن فيها، يصل قطرها إلى 100 ألف سنة ضوئية، والمجموعة الشمسية فيها مجرد نقطة صغيرة لا تكاد ترى بالعين المجردة، ونحن هناك في عمق المجموعة، التي تكون شمسها أكبر من الأرض بمليون مرة، تلك الأرض التي ظهرت نقطة باهتة حين صورها المسبار الفضائي فوياجر1 من مسافة تبعد عنها 6 مليارات كيلو متر[76]، وإذا كانت المجرة التي تتضمن أكثر من 300 مليار نجم مجرد نقطة في العنقود المجري، والمجموعة الشمسية مجرد نقطة في نقطة المجرة، والأرض مجرد نقطة في نقطة المجموعة الشمسية، فهل يكون الإنسان إلا وهما؟!

تلك هي حقيقة الكون الذي نعيش فيه، تثبت الفيزياء أنه مجرد وهم، وتثبت الصوفية ذلك أيضا، وتثبت القصيدة الأمر ذاته، والإنسان في وهم الوجود ليس إلا وهما.

المبحث السادس

ما بعد الوجود

بالرغم من الوصول إلى نتيجةِ وَهْمِ الوجود؛ فإن للعدم وجودا، أو للوهم وجودا في المقابل، ذلك ما يسميه البحث (ما بعد الوجود)، فالإنسان بالرغم من الوهم الكمي يمثل وجودا له ما له وعليه ما عليه، ولقد تتكون القوة المؤثرة في الكون من ذلك الوهم الصغير، والفيزياء تصل إلى أن المكون الأساسي المؤثر في الكون الذي يبدأ من الأوتار الفائقة، وربما يأتي يوم ويكتشف ما هو أصغر من ذلك؛ فقد كانوا يظنون أن الذرة هي أصغر مكون يتكون منه كل شيء، ثم وجدوا داخل الذرة نواة

وحولها مدارات تدور فيها إلكترونات سالبة الشحنة، ووجدوا داخل النواة، بروتونات موجبة الشحنة، ونيوترونات عديمة الشحنة، ثم في وقت لاحق، وجدوا داخل كل بروتون كواركات مختلفة[77]، ثم وجدوا أخيرا أن الكواركات مكونة من أوتار مهتزة، وهكذا وصلوا إلى الاعتقاد بأن الكون يبدأ من ذلك الاهتزاز، "وتملك نظرية الأوتار المَقْدِرَةَ على إظهار أن كل الأحداث العجيبة التي تجري في الكون بداية من الرقص العشوائي للكواركات، إلى الفالس التقليدي لمنظومة مكونة من نجمين يدوران أحدهما حول الآخر، وبداية من كرات اللهب البدائية في الانفجار الهائل إلى الدوران المهول للمجرات في السماء، كل هذا مجرد انعكاسات لمبدأ فيزيائي عظيم، وسيادة لمعادلة واحدة"[78] ، ومن نتائج ذلك أن كل شيء متحرك، فلا مكان للسكون في كوننا، فالجمادات التي نراها كالجبال مثلا، هي كون متحرك متناهي الصغر لا يدرك بالعين، بدأ الحركة من شيء لا يرى، وكأنه بدأ من لا شيء، أو أن العدم له وجود، وانظر بعد ذلك إلى قول الله تعالى:" وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَاعِلِينَ"[79]، وقوله:" تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا"[80] ، وكلمة "شيء" تشمل الأحياء والجمادات، حيث إنها جميعا متكونة من ذرات، في داخلها عوالم من الحركة والتفاعلات والصراعات، والاهتزازات التي تكتب لها حياتها الخاصة، ولو تقوض البناء في الذرة، انهارت المجرة بأكملها، فانظر كيف بني الكون من لا شيء، وأصبح للعدم وجود حقيقي.

وبعد أن أصبح الكون موجودا بكل ما فيه من تفاصيل، حمل الكثير من أسرار الوجود التي لم يصل العلم إلا لبعضها، تلك الأسرار هي اليوم في عداد العدم، وهي غدًا شيء من الوجود، ومن ذلك أسرار تسبيح كل شيء التي سبق ذكرها، وربما التسبيح كائن في حركة الكواركات، أو قد يكون في دورات الإلكترون حول النواة، بصورة دائمة لا تتوقف، ولو توقف لحظة انهارت الذرة، والأمر ذاته يسري على حركة الأجرام الكبيرة، فلو توقفت الأرض مثلا عن الدوران حول الشمس لسقطت في قرصها وانتهى كل شيء بالنسبة لنا.

وجب التنبيه إلى أنه ليس المقصود بظهور كل شيء من العدم الاستغناء عن خلق الله له، كما يطرح بعض من يؤمن بالداروينية والتطورية، كما فعل .... في كتابه.... حين حاول الإجابة عن فرضية أن "شيئا ما جاء من لا شيء" وهو يستميت في الدفاع عنها، فيقول:" يضفي فهمنا الحالي للكون وماضيه ومستقبله المصداقية على فرضية أن شيئا ما يمكن أن ينبثق من لا شيء، دون الحاجة إلى أي تدخل إلهي. وبسبب صعوبات الملاحظات العلمية والنظرية المتصلة بها، المرتبطة باستنباط حلول لتفصيلاتها وتطويرها، أتوقع ألا نحقق أكثر من المصداقية في هذا الصدد"[81] والكاتب يطرح توقعا، ثم يرد على نفسه بأنه غير قادر على إثبات الفرضية حاليا!

وإنما مقصود البحث من ظهور كل شيء من العدم، هو ظهوره من نقطة لا تساوي شيئا بفعل فاعل هو الله تعالى، وهذا هو الحل الوحيد للمأزق الذي وقع فيه الداروينيون: التسليم للخالق الأول. ولعل أقرب ما يعبر عن مقصود البحث تعريف الدكتور مصطفى محمود للعدم:" نعم هناك عدم، فما سوى الله عدم، والعدم عندنا غير معدوم، فالعدم هو الوجه المقابل للوجود، كالظلمة في مواجهة النور، والسالب في مواجهة الموجب، والقابل في مواجهة الفاعل، وكالمرآة في مواجهة الشمس. وفي العدم حقائق أزلية قديمة هي شؤون الله، ونحن كلنا كنا حقائق في العدم أخرجها الله برحمته وأعطاها لبسة الوجود وجعلها محلا لتجليات أسمائه وصفاته"[82]، ذلك هو العدم الذي له وجود.

ومن مظاهر ظهور الكون من العدم إضافة إلى ما سبق، المادة المظلمة والطاقة المظلمة، فقد وجد العلماء أن المادة المنظورة في الكون لا تزيد عن 5% من كمية المادة اللازمة لكي يبلغ الكون كثافته الحرجة، وبعد البحث الطويل وجدوا أن "حالة الكون متمثلة بمحتوى مادي مضيء يشكل بحدود 4%، وهو المادة المرئية، و22% مادة مظلمة، و74% طاقة مظلمة"[83]، وبذلك يكون أغلب الكون عدم لا يبدو ظاهرا للعيان، ولكنه يمثل البناء الأكبر للكون الذي نعيش فيه، وأمر الطاقة المظلمة والمادة

المظلمة ما زال مجهولا في الغالب، وما زال الطريق طويلا لاكتشافها، على أن العلماء يعتقدون أنها هي المسؤولة عن تمدد الكون.

هذا ما يقوله العلم عن الوجود الذي يمثله العدم، فما يقول التصوف يا ترى؟

يقول الصوفية بأن العماء الموجود قبل خلق الكون، أصبح ظرفا للكون، ويعدونه من العدم الذي له وجود، حيث "ظهرت فيه جميع الممكنات، وهذه الموجودات الممكنات التي أوجدها الحق تعالى هي للأعيان التي يتضمنها هذا البرزخ، بمنزلة الظِلالات للأجسام"[84] وكأن الوجود بهذا وَهْمٌ ليس له حقيقة، ومن ذلك الوهم ظهرت صور المبدَعات، وهذا قريب جدا من مقولة العلم بوجود الفراغ الكوني العظيم، الذي هو ليس بفراغ على الحقيقة، وفيه الطاقة المظلمة والمادة المظلمة التي سبقت الإشارة إليها.

إن القول بالوجود في العدم، يمنح الخصوصية للخاصَّة، يرون في العدم وجودا لا يراه العامة، وتكون الكشوف التي يحصلون عليها من ذلك العدم، بينما لا يبصر العامة إلا الظلمة، " فكل ما يدركه المكاشف من مقامات لا يدركها إلا بعين الخيال إذا شوهدت، فإن صورها إذا مثلها الله فيما شاء أن يمثلها متخيلة فتراها أشخاصا رأي العين، كما ترى المحسوسات بالعين"[85]، وهذا يجعل التصوف سابقا على الفيزياء التي ما زالت في طور التنظير للفراغ الكوني، ولم تستطع الوصول إلى مشاهداته ومكوناته وقواه الخفية، أما الصوفية فقد رأوا من المكاشفات ما هتك حجب الأستار، وأزاح ظلمة العدم، وأسموه الجوهر المظلم، وكونه جوهرا يعطيه القيمة والتقدمة على غيره، فهو جوهر الوجود المرئي، ومنه تنبثق أشكال الموجودات، "ومنه ظهرت هذه الأنوار والضياءات في عالم الأجسام، وهي الأنوار المركبة، سلخت من هذا الجوهر فبقي مظلما"[86] وقولهم بأنها أنوار مركبة يعضد القول بأن للعدم وجودا، فالأنوار إنما هي تركيب من عناصر ذلك العدم، وكذلك شأن نقطة التفرد التي منها انبثق الكون بالانفجار العظيم، فلم يكن الكون مرئيا، كما هو شأن الأحداث الكثيرة التي تحدث في فراغات الكون الحالي، وليس يدركها البشر، ولكنها قوى متحكمة لا يمكن نكرانها لما لها تأثير واضح في سيرورة الحياة الكونية.

إن جزءا من إدراك العدم الموجود يتلخص في السفر إلى ذلك العالم من المكاشفات، عن طريق الرؤى المنامية، أو عن طريق التجرد من الذات كما يذهب الصوفية، وأبو مسلم في قصيدته الوادي المقدس يقول:

هُوَ اللهُ بِاسْمِ اللهِ ذَاتِي تَجَرَّدَتْ = وَهَامَتْ بِمَجْلَى النُّورِ عَيْنُ حَقِيقَتِي[87]

وهو تجرد الروح من المادة التي شغلتها عن رؤية العالم على حقيقته، أو عن رؤية العدم الموجود، ورتبة التجرد لا ينالها إلا من أمعن في محو الذات، حتى تتحرر الروح من أسر المادة، والشاعر يقول بأنه استطاع التحرر من أسر المادة؛ فهام بالأنوار المتجلية في العدم الموجود، إلى درجة أنه يرى أسماء الله هناك، أي يرى تجلياتها:

هُوَ اللهُ بِاسْمِ اللهِ شَاهَدْتُ اِسْمَهُ = فَتَاهَتْ بِأَفْنَاءِ الفَنَاءِ أَنِيَّتِي[88]

لقد فنيت الأنا، أو لقد تحقق التجرد منها، وكانت النتيجة أن شاهد اسم الله تعالى متجليا حيث لا يراه المتشبثون بالهيكل الأرضي. ومن مظاهر هذا الإدراك إدراك تسبيح المخلوقات؛ لأن السالك يصل إلى لطافة روحية تؤهله للغياب عن وجوده المادي والسفر في عالم الملكوت، فيسمع تسبيح المخلوقات كما حدث مع داود عليه السلام، قال الله تعالى:" وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ۚوَكُنَّا فَاعِلِينَ"[89]، وذلك توغل في عالم من الإدراك للعدم الموجود، يمثله قول الشاعر:

وَيَا قَابِضَ الأَكْوَانِ فَهِيَ بِحَمْدِهِ = مُسَبِّحَةٌ فِي القَبْضِ تَسْبِيحَ فِطْرَةِ[90]

فكل شيء في الأكوان مسبح بحمد الله، مهما دق أو عظم، وقد سبقت الإشارة إلى حركة الإلكترون الدقيق، التي قد تكون نوعا من التسبيح، وكذلك حركة الكواركات، واهتزاز الأوتار الفائقة، وفي المقابل حركة الأجرام الكبيرة، كالنجوم والمجرات، والعناقيد المجرية، فالكون كله سابح ومسبح بحمد الله.

المجلد 3 ، العدد 3 ص 300 - 322 (2025)، Volume 3 , Issue 3

المبحث السابع
الانسحاق العظيم

من أبرز النظريات التي تناولت سيناريو نهاية الكون نظرية "الانسحاق العظيم"، وهي النظرية المقابلة لنظرية الانفجار العظيم، فكما أن الكون بدأ من نقطة متفردة وأخذ في التوسع، يرى العلماء أنه لا بد من أن يعود في النهاية لينكمش وينضغط حتى يعود إلى نقطة البداية، وهذا السيناريو تعبر عنه الآية الكريمة في قول الله تعالى:" يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ"[91]، على أن مقاربة دلالة الآية مع معطيات نظرية الانسحاق العظيم ليس على اليقين، فقد يكون السناريو مختلفا في طريقة وقوعه، ولكن تكفي المقاربة للدلالة على العلاقة بين الدين والعلم، " فتشبيه طي الكون بطي الصحائف لهو تشبيه تفوق روعته أي وصف، ولا يمكن أن يصدر إلا من الحكيم العليم، الذي خلق هذا الكون... وكأننا نشاهد أمام أعيننا فيلما معكوسا لتمدد الكون، نرى نجومه في اقتراب مستمر، ونرى مجراته تنضغط، وتكبس ويصغر حجمها"[92]، حتى تعود إلى نقطة التفرد الأولى، وإلى السجل المطوي غير المنشور.

وإذا كانت السرعة في الانفجار تتقلص بعد أن كانت أسرع من الضوء، فإن السرعة في الانسحاق تزيد كلما اقترب الكون من بعضه وزاد انكماشه، " حتى نبدأ في رؤية مرحلة كرة النار في الانفجار الكبير على نحو معكوس، عندما يصل الكون إلى جزء من المليون من حجمه الحالي يصل إلى ارتفاع بالغ في حرارته... عندما يصل الحجم إلى جزء من المليار من الحجم الحالي تصل درجة الحرارة إلى مليار درجة"[93]، تبدأ النوى الأساسية في التفتت إلى مكوناتها، وهذا يعني انهيار المنظومة الكمية التي منها كانت البداية، وهكذا يستمر الانسحاق حتى نصل إلى مرحلة نقطة التفرد.

وهناك سيناريوهات أخرى منها تلاشي الكون، أي إنه سيصل إلى مرحلة من التمدد تؤدي إلى تمزقه وتلاشيه، بل إن الطاقة المظلمة وحش جديد وغير مألوف يغير كل شيء، وإنها مع التمدد سوف تزيد لتسيطر على الكون المتمدد، ما يؤدي إلى تلاشيه في النهاية، يحدث ذلك حين "تزداد قوة الطاقة المظلمة على نحو هائل، حتى إنها لن تتسبب فقط في تحرير أي جسم مقيد بواسطة الجاذبية، لكنها قد تتخطى أيضا في النهاية القوى الأساسية الأخرى، وتسبب عدم تماسك المادة"[94]، حتى يحدث الانهيار. وهذا سيناريو آخر لنهاية الكون، ولكن ماذا يقول الصوفية عن قصة النهاية؟

يربط الصوفية عودة الكون إلى بدايته، بعودة الإنسان إلى ربه، فالله قد خلق الإنسان من عدم، وستعود الروح إلى بارئها مرة أخرى، وهو معنى الرجوع في قوله تعالى:" إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ"[95]، فلا بد من عودة بالنهاية إلى البداية، يقول جلال الدين الرومي في المثنوي:" تقول الروح: يا أجزائي الأرضية الدنية، إن غربتي أكثر مرارة فأنا من العرش... وميل الروح إلى الحياة وإلى الحي، ذلك أن أصلها هو روح اللامكان"[96]، وفي تعبيره إشارة إلى العودة إلى ما قبل المكان الذي هو طارئ حادث،

ولأبي مسلم البهلاني في قصيدته الوادي المقدس إشارات واضحة ربطت بين العودة الروحية والعودة الكونية، وهي قريبة من مقولة الانسحاق العظيم، ومن ذلك قوله:

هُوَ اللهُ بِاسْمِ اللهِ ذَرَّاتُ عَالَمِي = خَوَاتِمُهَا بَدْءٌ كَعَالَمِ ذَرَّتِي[97]

فالشاعر يصرح بأن ذرات العالم ستعود كما بدأت، كما تعود ذرة الشاعر إلى أصلها كما بدأت، وهو يشير إلى عالم الذر الذي وجدت فيه قبل أن تسكن البدن الأرضي، وعليه فالشطر الأول يشير إلى عودة الكون إلى بدايته، والشطر الثاني يشير إلى عودة الروح إلى بدايتها، والذرة المادية الكونية، تقابلها ذرة روحية طاقية، والذي يجمع الذرات جميعا هو مصدرها الواحد، ومصيرها الواحد، يقول:

فَمَصْدَرُ خَلْقِ العَوْدِ كَالبَدْءِ وَاحِدٌ = وَمَا حُكْمُنَا إِلَّا كَنَفْسٍ وَحِيدَةِ[98]

مصدر خلق البداية والنهاية واحد، وهو الله تعالى، وحكم الجميع كحكم الفرد عند الله تعالى، والجميع راجع إلى الفرد، والتعدد راجع إلى الوحدة، والكون راجع إلى الذرة، "فالأمر كله منه ابتداؤه وانتهاؤه، إليه يرجع الأمر كله كما ابتدأ منه"(99) والجميع رغم التعدد كالواحد في حكم العودة، ولعله في ذلك يشير إلى قول الله تعالى:" مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ"(100)، وتلك أهم الإشارات في الوادي المقدي إلى نهاية الكون وعلاقتها بالعلم الحديث.

الخاتمة:

لقد أفضى البحث إلى وجود علاقة وثيقة بين الفيزياء التجريبية والتصوف المعتمد على الكشوف، حيث إنهما يلتقيان في أودية متعددة من أودية المعرفة، بالرغم من اختلاف أدوات الوصول، إلا أن النتيجة متشابهة، وهو دليل على أن التصوف لا يقوم على تخرصات غيبية، وإنما هو قائم على علم لدنيّ لا يعرفه العامة، وإنما هو علم الخاصة، به يرون ما غاب كالقبس في وضح النهار، ذلك العلم هو الذي دفع ابن عباس إلى القول:" وما يؤمنني إذا فسرتها لك ألا تكفر" فالجانب غير مأمون على العامة، إنما يحتاج وعيا روحيا عميقا غير قائم على التجريب، بل على سلطة الخيال كما يصرحون، ويكفي أن يسترشد البحث إلى نقاط اللقاء مع الفيزياء لإثبات المعرفة المشتركة، تلك المعرفة تؤسس لفهم الكون عند علماء الفيزياء، وإلى نظرية كل شيء، وتؤسس لمعرفة الله ووحدانيته كما عند علماء التصوف.

لقد انتخب البحث قصيدة الوادي المقدس لأبي مسلك البهلاني التي تترنم بأسماء الله الحسنى، ووجد في طياتها الكثير من الإشارات إلى القواعد الكونية من جهة الكشوف لا من جهة التجريب، وهي بذلك تتساوق مع النظرة الصوفية العامة عند أقطابها الكبار، وتكشف عن تجربة روحية مغامرة من حقها أن تكتشف وتدرس بعمق.

لقد كشف التصوف عن جدارة وسبق في كثير من الميادين، ولعله اعتمد في كثير منها على الاستشفاف من آيات القرآن الكريم التي تمثل إعجازا علميا في جانب مما تمثله من إعجاز، ووصل التصوف في وقت مبكر إلى معرفة أسرار المغيبات عن الأنظار، وإلى قراءة حقيقة الإنسان ومقداره وحجمه الصغير، ووهم الوجود والبدايات والنهايات، وغير ذلك مما أبان البحث عنه بالتفصيل، ولقد خلص البحث إلى مجموعة مهمة من النتائج ومن أهمها:

1- التناقض بين الفيزياء التجريبية والتصوف العرفاني تناقض ظاهري، وهما يلتقيان في فهم حقيقة الحياة والكون، وإن اختلفت الوسائل والأدوات.
2- سبق التصوف إلى تقديم إجابات لكثير من القضايا قبل الاكتشافات الفيزيائية، كبداية الكون، وتمدده.
3- مقولة التصوف بالحقيقة المحمدية السابقة للكون، وكذلك القول بأولية عالم الذر تفوقت على الفيزياء التي لم تصل إلى ما قبل الانفجار العظيم.
4- مسألة تشكل الكون وتوسعه بعد الانفجار العظيم، يشابه كثيرا أرض السمسمة عند الصوفية وتوسعها.
5- يقوم بناء الكون على الجمع بين الأضداد، وبذلك تقول الصوفية أيضا.
6- التوافق بين الفيزياء والتصوف على أن كل شيء في هذا الكون لا يخرج عنه، ولا يفنى بالتقادم، وإنما هو متحول من حالة إلى أخرى.
7- العالم ليس له وجود حقيقي عند الصوفية ولا في الفيزياء، إنما هو مجرد وهم.
8- للعدم نوع من الوجود كما يرى المتصوفة، وتبحث الفيزياء عن وجود في الفراغ الكوني.

تلك أهم النتائج التي وصل البحث إليها، وبسبب العلاقة الواضحة بين حقل الفيزياء وحقل التصوف فإن البحث يدعو إلى تأسيس حقل الصوفيزياء، تخصصا أكاديميا يجمع بين الحقل العرفاني والحقل التجريبي،

كما يوصي البحث بدراسة نصوص صوفية أخرى وسبر أغوارها لاقتناص العلاقة بين الحقلين، ما يسهم في ردم الهوة بين الحقلين، ويعين على تقديم فهم شامل للكون والحياة التي نخوض غمارها.

بيانات الإفصاح:

- **الموافقة الأخلاقية والموافقة على المشاركة:** تم الاتفاق على المشاركة في البحث وفقاً للإرشادات الخاصة بالمجلة.
- **توافر البيانات والمواد:** كافة البيانات والمواد متاحة عند الطلب.
- **مساهمة المؤلفين:** يتحمل المؤلفين مسؤولية كافة محتويات البحث والتحليل والمنهجية والمراجعة الكاملة.
- **تضارب المصالح:** لا يوجد تضارب في المصالح لأي طرف من خلال تصميم البحث وتقديمه وتقييمه.
- **التمويل:** لا يوجد أي تمويل مخصص لهذا البحث.
- **شكر وتقدير:** الشكر الجزيل لأكاديمية التطوير العلمي ومجلة المؤتمرات العلمية (JSC) على الدعم والإرشادات (/https://sdasmart.org/jsconf)

المراجع:

- **القرآن الكريم**
- ابن أبي طالب، ع. (د.ت.). ديوانه. (تحقيق م. ع. خفاجي). دار ابن زيدون.
- ابن أبي طلحة، ع. (1991). تفسير ابن عباس (ط.1، تحقيق ر. عبد المنعم). مؤسسة الكتب الثقافية.
- ابن عربي، م. (1934). عنقاء مغرب في معرفة ختم الأولياء وشمس المغرب. المطبعة الرحمانية.
- ابن عربي، م. (1999). الفتوحات المكية (ط.1، تحقيق أ. شمس الدين، مج3). دار الكتب العلمية.
- ابن عربي، م. (2016). فصوص الحكم (ط.1). آفاق للنشر.
- ابن قسي، أ. (1997). خلع النعلين واقتباس النور من موضع القدمين (ط.1، تحقيق م. الأمراني). مطبعة imbh.
- ابن كثير، إ. (1998). تحفة النبلاء من قصص الأنبياء (ط.1، تحقيق غ. بن عباس). مكتبة التابعين.
- ابن كثير، إ. (1999). تفسير القرآن العظيم (ط.2، تحقيق س. م. سلامة، ج6). دار طيبة.
- أحمد، ي. ا. ح. (2003). موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة المطهرة (ط.2). مكتبة ابن حجر.
- إخوان الصفا. (2018). رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا (ج2). هنداوي.
- الألباني، م. ب. ن. (1997). صحيح سنن ابن ماجه (ط.1، مج1). مكتبة المعارف.
- إمبي، ك. (2013). نهاية كل شيء (ط.1، إ. المغربي، مترجم). هنداوي.
- الرواحي، ن. ب. س. (2010). الآثار الشعرية لأبي مسلم البهلاني (ط.1، تحقيق م. الحارثي). منشورات الجمل.
- الرومي، ج. ا. (1997). مثنوي (ج3، إ. الدسوقي، مترجم). المجلس الأعلى للثقافة.
- السكندري، ا. ع. ا. (1988). الحكم العطائية (ط.1، شرح ا. ع. النفري). مركز الأهرام للترجمة والنشر.

- السواح، ف. (2022). دين الإنسان بحث في ماهية الدين ومنشأ الدافع الديني (ط.1). هنداوي.
- الطائي، م. ب. (2010). الكون والعدم بحث في صيرورة العالم تطوره وغاياته. مكتبة المهتدين.
- الغراب، م. (1993). الخيال عالم البرزخ والمثال من كلام محيي الدين بن عربي (ط.2). دار الكتاب العربي.
- الغزالي، م. (1966). تهافت الفلاسفة (ط.4، تحقيق س. دنيا). دار المعارف.
- القرطبي، م. ب. أ. (2006). الجامع لأحكام القرآن (ط.1، تحقيق ع. التركي، ج16). مؤسسة الرسالة.
- القشيري، أ. ا. (1989). الرسالة القشيرية (تحقيق ع. محمود). مؤسسة دار الشعب.
- النيسابوري، م. ب. ا. (1998). صحيح مسلم (تحقيق أ. ص. الكرمي). بيت الأفكار الدولية.
- تشاون، م. (2008). نظرية الكمية لا يمكن أن تؤذيك (ط.1، ي. الدوري، مترجم). الدار العربية للعلوم ناشرون.
- جريبين، ج. (2010). قصة الكون (ط.2، م. إبراهيم، مترجم). كلمات عربية.
- ديفيز، ب. (2002). القوى الأربع الأساسية في الكون (ط.1، هـ. أ. محمد، مترجم). المجلس الأعلى للثقافة.
- راجي الكريم، ب. (2018). أساسيات الفيزياء [كتاب إلكتروني].
- زيدان، ي. (1988). عبد الكريم الجيلي فيلسوف الصوفية (ط.1). الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- ساجان، ك. (1993). الكون (ن. أيوب، مترجم). عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون.
- ساجان، ك. (2000). كوكب الأرض، نقطة زرقاء باهتة (ط.1، ش. العالم، مترجم). عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون.
- ستيوارت، إ. (2022). حساب الكون بالأرقام (ا. ز. سامي، مترجم). هنداوي.
- الصغير، م. ح. ع. (2002). رحلة الإنسان من عالم الذر حتى حياة البرزخ (ط.1). مؤسسة البلاغ.
- عابدين، ل. (2020-2021). علم الموت [محاضرة]. جامعة المنارة الخاصة.
- عبد الخالق، ع. (2016). كرامات الصوفية (ط.2). مؤسسة التواصل.
- فؤاد، ع. (د.ت.). ما يفوق الأذهان الانفجار العظيم [كتاب إلكتروني].
- فوق العادة، ف. (2015). الإشعاع الكوني الخلفي. مجلة المعرفة، (621).
- كلوس، ف. (2014). فيزياء الجسيمات (م. ف. خضر، مترجم). مؤسسة عنداوي.
- كراوس، ل. (2015). كون من لا شيء (ط.1، غ. الحلواني، مترجم). منشورات الرمل.
- غرين، ب. (2005). الكون الأنيق (ط.1، ف. الشيخ، مترجم). مركز دراسات الوحدة العربية.
- ليدسي، ج. (2005). الانفجار الأعظم (ط.1، ع. عامر، مترجم). مكتبة المهتدين الإسلامية.
- محمود، م. (1986). بحث في الوجود والعدم (ط.1). دار العودة.
- هوكينج، س.، وملوندينوف. (د.ت.). تاريخ أكثر إيجازا للزمن (أ. السماحي، و ف. الشيخ، مترجمون). دار العين للنشر.
- يحيى، هـ. (د.ت.). معجزة الذرة (أ. م. سلطان، مترجم) [كتاب إلكتروني].

المجلد 3 ، العدد 3 ص 300 - 322 (2025)، Volume 3 , Issue 3

الهوامش:

[1] هوكينج، ستيفن، وملوندينوف: تاريخ أكثر إيجازا للزمن، تر: أحمد السماحي، وفتح الله الشيخ، دار العين للنشر، القاهرة: مصر، (د.ت)، ص77.

[2] ستيوارت، إيان: حساب الكون بالأرقام، تر: الزهراء سامي، هنداوي، المملكة المتحدة، 2022م، ص295.

[3] ساجان، كارل: الكون، تر: نافع أيوب، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، 1993م، ص201.

[4] ابن عربي، محيي الدين: عنقاء مغرب في معرفة ختم الأولياء وشمس المغرب، المطبعة الرحمانية، مصر، 1934، ص42.

[5] الأنبياء: 30

[6] ابن قسي، أحمد: خلع النعلين واقتباس النور من موضع القدمين، تح: محمد الأمراني، ط1، مطبعة imbh، آسفي: المغرب، 1997، ص130

[7] النيسابوري، مسلم بن الحجاج: صحيح مسلم، تح: أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية، الرياض: السعودية، 1998، ص1057، رقم الحديث: 2638.

[8] الصغير، محمد حسين علي: رحلة الإنسان من عالم الذر حتى حياة البرزخ، ط1، مؤسسة البلاغ، بيروت: لبنان، 2002م، ص27.

[9] الأعراف: 172

[10] الرواحي، ناصر بن سالم: الآثار الشعرية لأبي مسلم البهلاني، تح: محمد الحارثي، ط1، منشورات الجمل، بيروت: لبنان، 2010م، ص446.

[11] الآثار الشعرية (مرجع سابق)، ص133.

[12] المرجع السابق، ص158

[13] نفسه، ص177

[14] فؤاد، عبد الله: ما يفوق الأذهان الانفجار العظيم، (كتاب إلكتروني)، ص4

[15] الطائي، محمد باسل: الكون والعدم بحث في صيرورة العالم تطوره وغاياته، مكتبة المهتدين، إربد: الأردن، 2010م، ص153.

[16] كانا يجربان هوائيا خاصا، ولم يتمكنا من التخلص من الضجيج الراديوي، الذي كان في الحقيقة خلفية الإشعاع الكوني. ينظر: فوق العادة، فايز: الإشعاع الكوني الخلفي، مجلة المعرفة، ع621، سورية، 2015م، ص308.

[17] ابن أبي طلحة، علي: تفسير ابن عباس، ط1، تح: راشد عبد المنعم، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت: لبنان، 1991، ص353.

[18] أحمد، يوسف الحاج: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة المطهرة، ط2، مكتبة ابن حجر، دمشق: سورية، 2003م، ص316.

[19] الغراب، محمود: الخيال عالم البرزخ والمثال من كلام محيي الدين بن عربي، ط2، دار الكتاب العربي، دمشق: سورية، 1993، ص20

[20] إخوان الصفا: رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا، ج2، هنداوي، المملكة المتحدة، 2018، ص9.

[21] عنقاء مغرب (مرجع سابق)، ص121

[22] الآثار الشعرية (مرجع سابق)، ص139

[23] المرجع السابق، ص151

[24] المرجع نفسه، ص158

[25] نفسه، ص172

[26] الغزالي، محمد: تهافت الفلاسفة، تح: سليمان دنيا، ط4، دار المعارف، القاهرة: مصر، 1966، ص112.

[27] ليدسي، جيمس: الانفجار الأعظم، تر: عزت عامر، مكتبة المهتدين الإسلامية، ط1، القاهرة: مصر، 2005م، ص92.

[28] الذاريات: 47

[29] موسوعة الإعجاز العلمي (مرجع سابق)، ص383.

[30] فصلت: 11

[31] ينظر: ديفيز، بول: القوى الأربع الأساسية في الكون، تر: هاشم أحمد محمد، ط1، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة: مصر، 2002، ص93 وما بعدها

[32] ابن أبي طالب، علي: ديوانه، تح: محمد عبد المنعم خفاجي، دار ابن زيدون، بيروت: لبنان، (د.ت)، ص71.

[33] خلع النعلين (مرجع سابق)، ص217.

ISSN: 3105-8396

(34) عنقاء مغرب (مرجع سابق)، ص126.

(35) الآثار الشعرية (مرجع سابق)، ص139.

(36) ديفيز، بول: القوى الأربع الأساسية في الكون، تر: هاشم أحمد محمد، ط1، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة: مصر، 2002م، ص104.

(37) الآثار الشعرية (مرجع سابق)، ص144.

(38) المرجع السابق، ص155.

(39) كلوس، فرانك: فيزياء الجسيمات، تر: محمد فتحي خضر، مؤسسة عنداوي، المملكة المتحدة، 2014م، ص110.

(40) الآثار الشعرية (مرجع سابق)، ص179.

(41) الآثار الشعرية (مرجع سابق)، ص185.

(42) القوى الأربع الأساسية في الكون (مرجع سابق)، ص167.

(43) ينظر: فيزياء الجسيمات (مرجع سابق)، ص99 وما بعدها

(44) الآثار الشعرية (مرجع سابق)، ص375.

(45) راجي الكريم، بنان: أساسيات الفيزياء، كتاب إلكتروني، 2018م، ص67.

(46) الرومي، جلال الدين: مثنوي، ج3، ط1، تر: إبراهيم الدسوقي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة: مصر، 2002، ص592.

(47) عابدين، لؤي: علم الموت، (محاضرة) جامعة المنارة الخاصة، 2020-2021، ص15-18.

(48) السكندري، ابن عطاء الله: الحكم العطائية، شر: ابن عباد النفري، ط1، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة: مصر، 1988م، ص124.

(49) الألباني، محمد بن ناصر: صحيح سنن ابن ماجه، ط1، مج1، مكتبة المعارف، الرياض: السعودية، 1997، ص84، رقم الحديث: 163.

(50) الآثار الشعرية (مرجع سابق)، ص133

(51) المرجع السابق، ص139

(52) الآثار الشعرية (مرجع سابق)، ص191.

(53) الكون والعدم بحث في صيرورة العالم تطوره وغاياته (مرجع سابق)، ص55

(54) المرجع السابق، ص55.

(55) السواح، فراس: دين الإنسان بحث في ماهية الدين ومنشأ الدافع الديني، ط1، هنداوي، المملكة المتحدة، 2022م، ص333.

(56) غرين، باريان: الكون الأنيق، تر: فتح الله الشيخ، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت: لبنان، 2005م، ص67.

(57) ينظر: الانفجار الأعظم (مرجع سابق)، ص43.

(58) إمبي، كريس: نهاية كل شيء، تر: إيناس المغربي، ط1، هنداوي، المملكة المتحدة، 2013م، ص297.

(59) تشاون، ماركوس: نظرية الكمية لا يمكن أن تؤذيك، تر: يعرب الدوري، ط1، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت: لبنان، 2008م، ص73.

(60) النمل: 40

(61) ابن كثير، إسماعيل: تفسير القرآن العظيم، تح: سامي محمد سلامة، الجزء6، ط2، دار طيبة، الرياض: السعودية، 1999، ص92-93.

(62) القرطبي ، محمد بن أحمد: الجامع لأحكام القرآن، تح: عبد الله التركي، ط1، الجزء 16، مؤسسة الرسالة، بيروت: لبنان، 2006م، ص170.

(63) عبد الخالق، عبد الرحمن: كرامات الصوفية، ط2، مؤسسة التواصل، الكويت، 2016م، ص403.

(64) القشيري، أبو القاسم: الرسالة القشيرية، تح: عبد الحليم محمود، (د.ط)، مؤسسة دار الشعب، القاهرة: مصر، 1989، ص602.

(65) ابن عربي، محيي الدين، الفتوحات المكية، تح: أحمد شمس الدين، ط1، مج3، دار الكتب العلمية، بيروت: لبنان، 1999، ص552.

(66) الفتوحات المكية، مج3، (مرجع سابق)، ص556.

(67) زيدان، يوسف: عبد الكريم الجيلي فيلسوف الصوفية، ط1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة: مصر، 1988م، ص159.

(68) عبد الكريم الجيلي فيلسوف الصوفية (مرجع سابق)، ص166.

(69) الآثار الشعرية (مرجع سابق)، ص126.

(70) المرجع السابق، ص136

(71) المرجع نفسه، ص157.

(72) نفسه، ص169.

ISSN: 3105-8396

المجلد 3 ، العدد 3 ص 300 - 322 (2025)، Volume 3 , Issue 3

(73) العنكبوت: 64

(74) الآثار الشعرية (مرجع سابق)، ص170.

(75) ابن كثير: تحفة النبلاء من قصص الأنبياء، تح: غنيم بن عباس، ط1، مكتبة التابعين، القاهرة: مصر، 1998، ص54-55.

(76) ينظر: ساجان، كارل: كوكب الأرض، نقطة زرقاء باهتة، تر: شهرت العالم، ط1، عالم المعرفة، الكويت، 2000، ص17 وما بعدها.

(77) يحيى، هارون: معجزة الذرة، تر: أحمد ممتاز سلطان، (كتاب إلكتروني)، ص39.

(78) الكون الأنيق (مرجع سابق)، ص19.

(79) الأنبياء: 79

(80) الإسراء: 44

(81) كراوس، لورانس: كون من لا شيء، تر: غادي الحلواني، ط1، منشورات الرمل، القاهرة: مصر، 2015م، ص190.

(82) محمود، مصطفى: بحث في الوجود والعدم، ط1، دار العودة، بيروت: لبنان، 1986م، ص45

(83) الكون والعدم بحث في صيرورة العالم تطوره وغاياته (مرجع سابق)، ص170.

(84) الخيال عالم البرزخ والمثال (مرجع سابق)، ص11.

(85) المرجع السابق، ص35.

(86) نفسه، ص79.

(87) الآثار الشعرية (مرجع سابق)، ص125.

(88) المرجع السابق، ص125.

(89) الأنبياء: 79

(90) الآثار الشعرية (مرجع سابق)، ص144.

(91) الأنبياء: 104

(92) موسوعة الإعجاز العلمي (مرجع سابق)، ص402.

(93) جريبين، جون: قصة الكون، تر: مصطفى إبراهيم، ط2، كلمات عربية، القاهرة: مصر، 2010، ص277.

(94) نهاية كل شيء (مرجع سابق)، ص290.

(95) البقرة: 156

(96) الرومي، جلال الدين: مثنوي، تر: إبراهيم الدسوقي، ج3، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة: مصر، 1997، ص379.

(97) الآثار الشعرية (مرجع سابق)، ص135

(98) المرجع السابق، ص168

(99) ابن عربي، محيي الدين: فصوص الحكم، ط1، آفاق للنشر، القاهرة: مصر، 2016، ص49.

(100) لقمان: 28

ISSN: 3105-8396